محمد علي مشعل

علوم القرآن

علوم القرآن

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

الناشر

موقع الشيخ محمد علي مشعل على الإنترنت

www.mashal.ws

contact@mashal.ws

علوم القرآن

تأليف
الشيخ محمد علي مشعل
رحمه الله تعالى

اعتنى به
د. عبد الباري بن محمد علي مشعل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فهرس المحتويات

الموضوع **الصفحة**

مقدمة ١١
التعريف بالقرآن الكريم ١١
معنى علوم القرآن ١٣
كيف ظهرت "علوم القرآن" ١٣
أهمُّ التفاسير ١٦
حقيقة الوحي وأنواعه، ومناقشة الشّبهات المثارة حول ذلك ١٧
الوحي في الشّرع ١٧
ومراتبُ الوحي عديدةٌ ١٧
أعداء الوحي ٢٢
مناقشة الشّبهات المثارة حول الوحي ٢٣
تعريف القرآن الكريم ٢٦
أسماء القرآن الكريم ٢٧
صفات القرآن الكريم ٢٨
الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي ٢٨
أنواع العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم ٢٩
نزول القرآن الكريم ٣٠
معنى نزول القرآن ٣٠
وتنزّلات القرآن ثلاثةٌ ٣٠
أوّلُ ما نزل من القرآن الكريم ٣٥
آخرُ ما نزل من القرآن الكريم ٣٥
خصيصةُ حفظ القرآن الكريم ومقارنتها بواقع الكتب الأخرى المحرّفة ٣٧
من عوامل حفظ القرآن الكريم ٣٧
وهناك عوامل مباشرة لحفظ القرآن الكريم ٣٨

ترتيب آيات القرآن وسوره..... ٤٠
طريقة معرفة الآية..... ٤٠
عدد آيات القرآن..... ٤١
فوائد معرفة الآيات..... ٤٢
ترتيب آيات القرآن..... ٤٢
ترتيب السّور..... ٤٤
أسباب النّزول..... ٥٠
القرآن الكريم قسمان..... ٥٠
فوائد معرفة أسباب النّزول منها..... ٥١
طريقة معرفة سبب النزول..... ٥٢
تدوين القرآن الكريم وجمعه ومناقشة الشّبهات المثارة حول ذلك..... ٥٧
حفظ القرآن في الصّدور..... ٥٧
كتابة القرآن في عهد رسول الله ﷺ:..... ٦١
جمع القرآن في عهد أبي بكر ﷺ:..... ٦٣
جمع القرآن في عهد عثمان ﷺ:..... ٦٦
وأخيراً..... ٦٩
الرد على ما يُثار حول جمع القرآن من شُبهٍ..... ٧١
مكيُّ القرآن ومدنيُّه وخصائِصُهما..... ٧٦
الفرق بين المكّي والمدني..... ٧٧
خصائص المكي والمدني..... ٧٧
ومن القرآن..... ٧٩
نزول القرآن على سبعة أحرفٍ..... ٨٠
أدلة نزول القرآن على سبعة أحرفٍ..... ٨٠
معنى نزول القرآن على سبعة أحرف..... ٨١
مناقشة الشّبهات المثارة حول الأحرف السّبعة..... ٨٥

نشأة علم التفسير وبيان مناهج العلماء فيه ٨٨
والتّفسير نوعان إجمالاً..... ٨٨
التفسير المأثور..... ٩١
كلمة الإنصاف في التّفسير المأثور ٩٥
اعتبارات فيما روي عن التّابعين..... ٩٦
ملحوظة:..... ٩٦
[أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور] ٩٧
أشهر ما دُوّن من كتب التّفسير بالمأثور..... ١٠٦
التفسير بالرأي..... ١٠٧
أهم كتب التفسير بالرأي ١٠٨
التفسير الإشاري..... ١١١
أهم كتاب التّفسير الإشاري ١١٢
نماذج من تفاسير المعتزلة ١١٣
نماذج من تفسير الباطنية..... ١١٤
القراءات والقراء ١١٦
طبقات الحفّاظ ١١٦
أئمة القراءات السبع..... ١١٧
فوائد اختلاف القراءات..... ١١٨
ضوابط لقبول القراءات ١١٩
القراءات العشر متواترة..... ١١٩
حقيقة النّسْخ في القرآن الكريم ومناقشة الشّبهات المثارة حولَه..... ١٢٠
تعريف النّسْخ..... ١٢٠
الفرق بين النّسْخ والبَداء ١٢٠
جواز النّسْخ عقلاً ووقوعه شرعاً..... ١٢٢
النّسخ باعتبار البدل وعدمه..... ١٢٣

النّسْخ باعتبار النّصّ المنسوخ..... ١٢٤
النسخ باعتبار النّاسخ..... ١٢٥
وحِكَم النسخ..... ١٢٦
شبهات المنكرين لجواز النّسخ عقلاً..... ١٢٦
شبهات المنكرين لوقوع النّسْخ شرعاً..... ١٢٧
شروط النّسْخ..... ١٢٩
ما يمتنع نسْخه..... ١٣٠
إعجاز القرآن..... ١٣١
[لغته وأسلوبه]..... ١٣١
طريقةُ تأليفه..... ١٣٣
علومُه ومعارفه..... ١٣٤
وفاؤُه بحاجات البشر..... ١٣٤
إشاراتُه إلى العلوم الكونية..... ١٣٥
أنباءُ الغيب فيه..... ١٣٥
سياستُه في الإصْلاح..... ١٣٦
آيات العتاب..... ١٣٧
ما نزل بعد طول انتظار..... ١٣٨
آية المباهلة مع وفد نجران..... ١٣٩
وأمّا عَجْز الرّسول ﷺ عن الإتيان ببدلٍ له..... ١٣٩
وأخيراً..... ١٤٠
أسلوب القرآن الكريم..... ١٤٢
من أساليب القرآن الكريم..... ١٤٤
التّوكيد..... ١٤٤
التّوكيد أربعةُ أنواعٍ..... ١٤٤
أدوات التّوكيد..... ١٤٨

مؤكدات الجملة الاسمية ١٤٨
مؤكدات الجملة الفعلية ١٥٠
تنبيهٌ ١٥١
أسلوب التّكرار ١٥٢
ومن فوائد التكرير ١٥٤
أسلوب التكرار في سورة الكافرون وَغيرها ١٥٦
الحروف الزائدة ١٥٩
أشهر المستشرقين الذين أثاروا الشّبهات حول القرآن الكريم وعلومه ١٦٠
التبشير ١٦٠
أسماء أخطر المستشرقين وأهم كتبهم ١٦٢
موهم الاختلاف والتناقص في القرآن الكريم وطريق إزالته ١٦٧
آيات الأحكام في القرآن ١٧٠

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمّد الذي أرسله الله بالقرآن رحمةً للعالمين وفرجاً، وعلى آله وصحبه وأتباعه ومحبّيه وأمّته وبعد:

التعريف بالقرآن الكريم

القرآن الكريم كتابٌ ختم الله به الكتُب، وأنزله على نبيٍّ ختم به الأنبياءَ بدينٍ عامٍّ خالدٍ، فهو دستور الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السّماء لهداية الأرض، أنهَى إليه مُنْزِلُه كلَّ تشريع، وأودعه كلَّ نهضةٍ، وناطَ به كلّ سعادةٍ.

وهو حجّةُ الرّسول ﷺ وآيته الكبرى، يقوم في فم الدّنيا شاهداً برسالته، ناطقاً بنبوته، دليلاً على صدقه وأمانته.

يستند إليه الإسلام في عقائده، وعباداته، وحكمه، وأحكامه، وآدابه، وأخلاقه، وقصصه، ومواعظه، وعلومه، ومعارفه.

وهو عماد اللّغة العربية الأسمى تدين له في بقائها وسلامتها، وتستمد علومها منه على تنوّعها وكثرتها.

وهو القوّة المحولة التي غيرت صورة العالم، ونقلت حدود الممالك، وحولت مجرى التاريخ، وأنقذت الإنسانية العاثرة.

لذلك كلّه وغيره كان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من الرّسول ﷺ وصحابته، ومن سلف الأمّة وخَلفِها جميعاً إلى يوم النّاس هذا.

وقد اتّخذت هذه العنايةُ أشكالاً مختلفةً، فتارةً ترجع إلى لفظه وأدائه، وأخرى إلى أُسلوبه وإعجازه، وثالثةً إلى كتابته ورسمه، ورابعةً إلى تفسيره، وغير ذلك.

وقد أفرد العلماء كلَّ ناحيةٍ من هذه النّواحي بالبحث والتأليف، ووضعوا من أجلها العلوم، ودوّنوا من أجلها الكتُب، وتنافسوا في هذا الميدان الواسع حتّى أصبح لدينا الآن مصنفاتٍ متنوعةً وموسوعاتٍ قيّمةً في:

علوم القرآن، وعلم التجويد، وعلم النّسخ العثماني، وعلم أسباب النّزول، وعلم التفسير، وعلم النّاسخ والمنسوخ، وعلم المحكم والمتشابه، وعلم غريب القرآن، وعلم إعجاز القرآن، وعلم إعراب القرآن، وما شاكل ذلك من العلوم الدّينية والعربية مما يعتبر بحقٍّ أروعَ مظهرٍ عرفه التّاريخ لحراسة كتابٍ هو سيد الكتب، وبات هذا المظهر معجزةً جديدةً مصدّقةً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، ولقد أنجبت هذه العلوم وليداً جديداً هو مزيجٌ منها جميعاً وسَلِيلٌ لها جميعاً، فيه مقاصدها وأغراضها وخصائصها وأسرارها هو: **(علوم القرآن)**.

معنى علوم القرآن

علوم: جمع عِلْم، والمراد به هنا: المعلومات المنضبطة بجهةٍ واحدةٍ.

والقرآن: مصدر قَرَأَ، مرادف للقراءة، ثم نُقِلَ من المصدرية إلى العلمية، وقال الشّافعي: "إنّه عَلَمٌ مرتَجلٌ على هذا الكتاب غير مشتق من (قرأ)، كما أنّ التوراة عَلَمٌ على الكتاب الذي أُنزِل على موسى ﷺ"(١).

فالقرآن: كلامُ الله تعالى الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمّدٍ ﷺ بلسانٍ عربيٍّ مبين، المتعبّدُ بتلاوته، الذي أعجز البشر عن الإتيان بمثله، ونُقل إلينا نقلاً متواتراً كتابةً ومشافهةً، المكتوبُ بالمصاحف، المبدوءُ بسورة الفاتحة والمختومُ بسورة النّاس.

واسم القرآن يُطلق على كلِّه وعلى بعضه، فالسّورة والآية الواحدة يُقال لها: (قرآن).

كيف ظهرت "علوم القرآن"

كان الرّسول ﷺ يتلقّى الوحيَ عن الله وحدَه، وتَعَهّدَ الله بجمعه في صدره، وقراءته على لسانه، وكشف معانيه وأسراره في قلبه وعلى لسانه قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة].

وبلّغ الرّسول ﷺ ما أُنزِل عليه لأصحابه، فلقّنهم القرآن وفسّره لهم بقوله وبعمله وبتقريره وبخُلُقِه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وأَمر ﷺ كذلك بكتابة القرآن، والرسمُ الذي كُتِب به القرآن كان توقيفياً.

---

(١) جاء عند البيهقي في معرفة السنن والآثار للبيهقي [١٤ /٤٧٢]: "قال الشافعي: وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين، وكان يقول: "القرآن اسم وليس بمهموز، ولم يؤخذ من "قرأت"، ولو أُخذ من "قرأت" كان كلّ ما قرئ قرآنا، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة، والإنجيل، يهمز قرأت، ولا يهمز القرآن".

وجُمع القرآن في عهد أبي بكر ﷺ حيث كان صُحُفاً كُتِبت بين يدي النّبيّ ﷺ، وفي عهد عثمان ﷺ كانَ نسخاً لهذه الصحف.

ثم جاء عليٌ ﷺ فأمر أبا الأسود أنْ يضع بعض القواعد لحماية اللّغة العربية، ووضع الأساس لعلم النّحو.

وجاء بنو أمية وظهر علماء التابعين الذين حفظوا القرآن برواياته، ووضعوا الأساس لعلم التفسير، وعلم أسباب النزول، وعلم النّاسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن.

ثم جاء عصر التدوين، وكان من أوَّل الكاتبين في التّفسير: شعبة بن الحجَّاج، وسفيان بن عينية، ووكيع بن الجراح، وتفاسيرُهم جامعةٌ لأقوال الصّحابة والتّابعين وهم من علماء القرن الثّاني.

ثم تلاهم ابن جرير الطّبري المتوفى سنة (٣١٠) هـ.

وألّف علي بن المديني شيخ البخاري في أسباب النّزول.

وألّف أبو عبيدة القاسم بن سلّام في النّاسخ والمنسوخ، وهما من القرن الثّالث.

وألّف أبو بكر السّجستاني في غريب القرآن، وهو من علماء القرن الرّابع.

وألّف علي بن سعيد الحوفي في إعراب القرآن، وهو من علماء القرن الخامس.

وألّف أبو القاسم السّبيلي في مبهمات القرآن، وهو من علماء القرن السّادس.

وألّف ابن الجوزي: (فنون الأفنان في علوم القرآن) (والمجتبى) وهو من علماء القرن السّادس.

وألّف ابن عبد السّلام في مجاز القرآن، وهو من علماء القرن السّابع.

وألّف عَلَم الدين السّخاوي المتوفى سنة (٦٤١) هـ في القراءات كتاباً سمّاه: (جمال القراء)، وهو من علماء القرن السّابع.

وألّف أبو شامة المتوفى سنة (٦٦٥) هـ كتاباً سمّاه: (المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز)، وهو من علماء القرن السّابع.

وظهرت في القرن السّابع مؤلفاتُ أقسام القرآن، وأمثال القرآن، وحجج القرآن، وبدائع القرآن، ورسم القرآن.

وفي القرن الثامن ألّف الزركشي المتوفى سنة (٧٩٤) هـ: (البرهان في علوم القرآن).

وفي القرن التّاسع ألّف الكافيجي المتوفى سنة (٨٧٣) هـ كتاباً اشتمل على بابين وخاتمة كالآتي: الباب الأول: (في ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة). والباب الثاني: (في شروط القبول بالرأي). والخاتمة: (في آداب العالم والمتعلم).

وفي القرن التّاسع ألف جلال الدّين البُلقيني (مواقع العلوم من مواقع النجوم) تكلّم فيه عن مواطن النّزول.

وفي القرن التّاسع ألف السّيوطي المتوفى سنة (٩١١) هـ: (التحبير في علوم التفسير) و(الإتقان في علوم القرآن).

وأخيراً (مناهل العرفان) للشّيخ عبد العظيم الزرقاني رحمه الله.

أهمُّ التفاسير

١. تفسير ابن عباس.
٢. تفسير مجاهد رأس المفسرين.
٣. تفسير ابن كثير وكان فقيهاً ومحدّثاً ومؤرخاً.
٤. تفسير فخر الدّين الرّازي وهو من أجلِّ التفاسير.
٥. تفسير الزّمخشري وهو (الكشّاف) كشف عن بلاغة القرآن، وله كتاب (أساس البلاغة)، معتزليُّ العقيدة.
٦. تفسير الشّوكاني ناصرُ السّنّة وقامعُ البدعة (فتح القدير).
٧. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن).
٨. تفسير البغوي (معالم التنزيل).
٩. تفسير ابن عطية.
١٠. تفسير النّسفي.
١١. تفسير أبي السّعود.
١٢. تفسير البيضاوي.
١٣. تفسير الجلالين وحاشية الجمل عليه.
١٤. تفسير الألوسي.
١٥. تفسير المراغي.
١٦. في ظلال القرآن.
١٧. أوضح التفاسير.
١٨. تفسير المنار.
١٩. تفسير أضواء البيان.

حقيقة الوحي وأنواعه،
ومناقشة الشّبهات المثارة حول ذلك

الوحي في الشّرع

"أن يُعْلِم الله تعالى مَن اصـــطفاه من عباده كلّ ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكنْ بطريقةٍ ســـريةٍ خفيةٍ غير معتادة للبشـــر"(١)، وقال ابن حجر: "والوحي لغةً: الإعلام في خفاء ... وشرعاً: الإعلام بالشّرع"(٢).

ومراتبُ الوحي عديدةٌ

إحداها: الرؤيا الصّـادقة، فكان رسـول الله ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح، عن عائشـة ﵂ قالت: "أوّل ما بُدِئ به رسـول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصّـادقة في النّوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصّبح"(٣).

الثّانية: كان يتمثّل له المَلَك رجلاً فيخاطبه فَيَعِي ما يقول، فقد ثَبَتَ أنّه كان يأتيه في صورة دِحْيةَ الكلبي(٤).

الثّالثة: كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليه، حتى إنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ(٥) عَرَقاً في اليوم الشّـــديد البرد، حتى إنّ راحلته لتبرك به في الأرض، ولقد جاءه الوحي مرةً كذلك وفَخِذه على فَخِذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضّها(٦).

---

(١) مناهل العرفان (٤٦/١).

(٢) فتح الباري (٩/١).

(٣) رواه البخاري (٤).

(٤) رواه النسائي (٤٩٩١).

(٥) من الفصد، وهو قطع العِرْق لإسالة الدم، شبّه جبينه بالعِرْق المفصود مبالغةً في كثرة العَرَق.

(٦) انظر: زاد المعاد (٨٠/١).

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ قَالَ: كُلُّ ذَاكَ، يَأْتِينِي الْمَلَكُ أَحْيَانًا فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، وَيَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ أَحْيَانًا رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ، قَالَتْ عَائِشَةَ: "وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا"(١).

الرابعة: النَّفْثُ في الرُّوع – وهو ما كان يُلقيه الملَكَ في رُوعه وقلبه ونفسه – من غير أنْ يراه. كما في حديث ابن مسعود ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: "إنّ روح القدُس(٢) نَفَثَ في رُوعي لن تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها، فاتّقوا الله وأجْملوا في الطّلب(٣)، خذوا ما حلّ ودعوا ما حَرُم، ولا يحلمنَّ أحدكم استبطاءَ الرّزق أنْ يطلبه بمعصية اللهِ فإنّ الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته"(٤).

الخامسة: أنْ يرى ﷺ الملَك في صورته التي خُلق عليها، له ستمائة جَناحٍ، فيُوحِي إليه ما شاء الله أنْ يوحيَه، وهذا وقع له مرتين كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾[النّجم].

وعن ابن مسعود ﵁: "لم يَرَ محمد ﷺ جبريل في صورته إلا مرتين، أمّا واحدةٌ فإنّه سأله أنْ يريَه نفسَه فأراه نفسَه فَسَدّ الأُفُق، وأمّا الأخرى فليلة الإسراء"(٥).

السّادسة: ما أوحاه الله إليه وهو فوق السّموات من فرض الصّلوات وغيرها كالجهاد والهجرة والصّدقة كما في حديث أنس وأبي ذر في الصّحيحين.

---

(١) رواه البخاري (٢).

(٢) جبريل عليه الصّلاة والسّلام.

(٣) أجْمَلَ: طلب في قَصْدٍ واعتدال، مع عدم انشغال القلب.

(٤) رواه البزار في مسنده (٢٩١٤).

(٥) رواه أحمد في مسنده بمعْنَاه (٣٦٧٠).

السّـــابعة: كلام الله تعالى منه إليه بلا واســـطة ملَك كما كلَّم موســـى عليهما الصّـــلاة والسّلام. وهذا وإن كان ثابتاً في القرآن لموسى عليه الصّلاة والسّلام إلا أنّه ثابتٌ لنبيه محمّدٍ ﷺ في السّـــنّة، وذلك في ليلة المعراج، جاء في حديث أنس ﷺ أنّ رســـول الله ﷺ قال: "رَجعتُ إلى ربّي فقلتُ: يا ربّ خَفِّف عن أمّتي ... حتى قال: يا محمّد، إنَّهُنّ خمس صـلواتٍ كلّ يومٍ وليلةٍ، لكلّ صلاةٍ عشرٌ، فذلك خمسون صلاةً"(١).

وزاد بعضهم مرتبةً ثامنة وهي تكليم الله له كفاحاً أي مواجهةً بغير حجاب"(٢).

قال القسـطلّاني: "فهذا على مذهب مَن يقول: إنّه عليه الصّـلاة والسّـلام رأى ربّه"(٣)، وهي مسألةٌ خلافيّةٌ (فالحاصل أنّ الراجح عند أكثر العلماء أنّ رسول الله ﷺ رأى ربّه بعينَي رأسه ليلة الاسراء، كما قال النّووي) (٤).

ويُحتمل أنّ ابن القيم أراد بالمرتبة السّـادسـة وحي جبريل، وغَاير بينه وبين ما قبله باعتبار محلّ الإيحاء أي كونه فوق السّموات، بخلاف ما تقدم فإنّه كان في الأرض(٥).

قال القسـطلّاني: ويزاد أيضـاً كلامه تعالى له في المنام كما في حديث ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال: "أتاني ربّي في أحسن صورةٍ فقال: يا محمّد، قلتُ: لبيكَ وسعدَيك، قال: فِيمَ يختصِم الملأ الأعلى، قلتُ: ربِّ لا أدري، فوضـــع يَدَه بين كَتِفَيَّ فوجدتُ بَرْدَها بين ثدْيَيَّ، فَعَلِمْتُ ما بين المشرق والمغرب. فقال: يا محمّد، قلتُ: لبيكَ وسعديك، قال: فيمَ يختَصِمُ الملأُ الأعلى قلتُ: في الدّرجات والكفّارات، وفي نقل الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكَارِه،

(١) رواه مسلم (١٦٢).

(٢) زاد المعاد بتصرف (٨٠/١).

(٣) المواهب اللدنية بالمنح المحمّدية للقسطلاني (١٢٨/١).

(٤) شرح النّووي على مسلم (٥/٢).

(٥) طرح التثريب (١٧٢/٤).

وانتظار الصّلاة بعد الصّلاة، ومَن يحافظ عَليهنَّ عاشَ بخيرٍ ومات بخيرٍ، وكان من ذنوبه كيوم ولدته أُمّه"[١].

ثمّ مرتبةٌ أخرى: وهي العِلم الذي يلقيه الله تعالى في قلبه وعلى لسانه عند الاجتهاد في الأحكام، لأنه اتُّفِق على أنّه ﷺ إذا اجتهد أصاب قطعاً وكان معصوماً من الخطأ، وهذا خرقٌ للعادة في حقِّه دون الأمّة وهو يفارق النّفث في الرُّوعِ من حيث حصولُه بالاجتهاد، والنّفث بدونه.

ومرتبةٌ أخرى: وهي مجيء جبريل في صورة رجلٍ غير دِحْيَة لأنَّ دِحْية كان معروفاً عندهم (ذكره ابن المنيّر) ... وذكر الحَليمي[٢] أنَّ الوحي ستّةٌ وأربعون نوعاً فذكرها، وغالبها كما قال في فتح الباري من صفات حامل الوحي، ومجموعها يدخل فيما ذُكر ...

وذكر ابن عادل في تفسيره أنَّ جبريل نزل على النّبيّ ﷺ أربعةً وعشرين ألف مرةٍ"[٣].

وكان ﷺ يستعجل حفظ القرآن فكان يحرك لسانه خشية أن ينفلت منه بعد فَصْمِ (انقطاع) الوحي عنه فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة] فكان بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النّبيّ ﷺ كما قَرَأَه[٤].

قال الشّيخ عبد العظيم الزّرقاني[٥]: "ويكون الوحي على أنواعٍ شتّى:

منه ما يكون مكالمةً بين العبد وربّه كَمَا كلَّم الله موسى تكليماً.

---

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمّدية (١/١٢٨). والحديث رواه الترمذي (٣٢٣٤). وقال: هذا حديث حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه.

(٢) الْحَلِيمِيُّ، أبو عبد الله، حسين بن الحسن الجرجاني الشَّافعي، مات سنة (٤٠٣) هـ.

(٣) المواهب اللدنية بالمنح المحمّدية للقسطلاني (١/١٢٩).

(٤) رواه البخاري (٤٩٢٩). ومسلم (٤٤٨).

(٥) بتصرف واختصار من مناهل العرفان من (ص٤٦) إلى (ص٦٢).

ومنه ما يكون إلهَاماً يقذفه الله في قلب مصطفاه على وجهٍ من العلم الضّروري لا يستطيع له دفعاً.

ومنه ما يكون مناماً صادقاً يجيءُ تحقّقُه ووقوعه كما يجيءُ فلق الصّبح في سطوعه.

ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه الصّلاة والسّلام، وهو مَلَكٌ كريمٌ، ذو قوّةٍ عند ذي العرش مكينٍ، مُطاعٍ ثَمَّ أَمينٍ.

وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها، ووحي القرآن كلّه من هذا القبيل، وهو المصطلح عليه بالوحي الجليل، قال تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

ثم إنّ مَلَك الوحي يهبط هو الآخر على أساليب شتّى، فتارةً يَظهر للرّسول في صورته الحقيقية الملَكية، وتارةً يظهر في صورة إنسانٍ يراه الحاضرون ويستمعون إليه، وتارةً يهبط على الرّسول ﷺ خفيةً فلا يُرى ولكن يظهر أثر التّغير والانفعال على صاحب الرّسالة، فيغطّ غطيط النّائم ويغيب غيبةً كأنّها غشيةٌ أو إغماءٌ وما هي في شيءٍ من الغشْيةِ والإغماء إنْ هي إلا استغراقٌ في لقاء الملَك الروحاني وانخلاعٌ عن حالته البشرية العادية، فيؤثّر ذلك على الجسم فيَغِطّ ويثقل ثقلاً شديداً قد يتصبّب منه الجبين عرقاً في اليوم الشّديد البرد، وقد يكون وَقْعَ الوحي على الرسول ﷺ كوقع الجرس إذا صَلصَل في أُذن سامعه، وذلك أشدّ أنواعه، وربما سمع الحاضرون صوتاً عند وجه الرّسول ﷺ كأنّه دَويُّ النّحل لكنّهم لا يفهمون كلاماً، ولا يفقهون حديثاً، أمّا هو صلوات الله وسلامه عليه فإنّه يسمع ويَعي ما يُوحى إليه، ويعلم علماً ضرورياً أنّ هذا وحي الله دون لَبسٍ ولا خفاءٍ، ومن غير شكٍ وارتيابٍ، فإذا انجلى عنه الوحي وجد ما أوحي إليه حاضراً في ذاكرته منتقشاً في حافظته كأنما كُتِبَ على قلبه كتابةً.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فهذه الآية تجمع أنواع الوحي الثّلاثة:

١. الوحي إلقاء المعنى في القلب، وهو النّفث في الرُّوع في اليقظة أو في النّوم.

٢. الكلام من وراء حجابٍ، بأنْ يَسمع كلام الله من غير رؤيةٍ، كما حَدَث لموسى ومحمّدٍ عليهما الصّلاة والسّلام ليلة الإسراء.

٣. ما يُلقيه المَلَك إلى الرّسول فيراه متمثلاً في صورة إنسانٍ، أو غير متمثلٍ مع السّماع أو يعيه قلبه (ينفث في رُوعه).

أعداء الوحي

لا يؤمنون بالشّرع وأدلة الشّرع، إنّما يُؤمنون بالعلم الذي هو جملة المعارف اليقينية التي وصل إليها البحث.

الوحي من ناحية العلم: ليسَ في العلم ما يصطدم مع عقيدة الوحي، بل فيه ما يُؤيده.

فالتنويم المغناطيسي يثبتُ أنّ للإنسان عقلاً باطلاً أرقى من عقله المعتاد، وأنّه في حالة التنويم يَرى ويسمع من بُعْدٍ شاسعٍ، ويقرأ من وراء حُجُب، والمنوّمُ له تأثيرٌ على النّائم.

والعلم الحديث استطاع أنْ يخترع من العجائب ما نعرفه ونشاهده وننتفع به كالتلفون واللاسلكي والراديو والتّلفاز ويخاطب الإنسان بها مَن كان في آفاقٍ بعيدةٍ.

وهناك أمثلة للعبقرية والعباقرة تشعّ على موضوع الوحي نوراً كشّافاً.

وأما العقلُ فيقرّ الوحيَ لأنّه وقع فعلاً وأخبر بوقوعه الصّادق المصدوق بدليل القرآن والسّنّة، وما أخبر به الصّادق المصدوق حقٌ ثابتٌ لأنّه صادقٌ معصومٌ، والدّليل هو المعجزات القائمة مقام قوله تعالى لعباده في شأن تصديق رسله: (صدقَ عبدي في كلّ ما يبلغ عني)، ومن ذلك: (أنه يُوَحَى إليه منّي).

والمعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة يُظهره الله على يَدِ مدّعي النّبوة عند دعواه إيّاها شـــاهداً على صدقه.

مناقشة الشّبهات المثارة حول الوحي

١. **يقولون:** إنَّ المعجزة شأنها شأنُ كثيرٍ من المخترعات، فكذلك العلم أتى بما يُذْهِل العقول!

والجواب: العلم له أسـبابٌ معروفةٌ عند أصـحابها، ويمكن معرفتها لمن لم يعرفها بيسـرٍ وســهولةٍ متى التمســها من طريقِها، وأمّا المعجزة فليس لها أســبابٌ معروفةٌ حتى تُلتَمَسَ ويُؤتَى بمثلها، مثل شقّ القمر فلقتين.

٢. **يقولون:** إنّ المعجزة كالسّحر والشّعوذة وما إليهما!

والجواب: إنَّ السّـــحر علمٌ من العلوم يمكن الإطّلاع عليه، والوصـــول إلى وســـائِلِهِ وغايته، وأمّا المعجزة فهي خارجةٌ عن الأســباب المعتادة والوســائل المشــاهدة والغايات المألوفة، فقد جاء موسى عليه الصّلاة والسّلام بمعجزته عصا من الخشب لا رُوح فيها ولا حركةَ ثمّ ألقاها باســـم الله الذي أرســـله فإذا هي حيةٌ تســـعى، والنّابغون في السّـــحر يشاهدون، ولهذا كانوا أوّل مَن آمن بموسى لأنّهم علموا الفرق الواضح والبَوْنَ الشّاسع.

٣. **يقولون:** إنَّ المعجزات آثارٌ لمواهبِ بعضِ النابغينَ من البشرِ!

والجواب: إنَّ النبوغ له وسـائلُ وعواملُ، وله أشـباهٌ ونظائرُ، والمعجزات ليس لها ذلك، فمحمدٌ ﷺ لم يطلّع على شيءٍ من هذا، بل هو نبيٌّ عربيٌّ أُميٌّ لم يدخل مدرسةً ولم يتعلّم على يدِ أحدٍ فكيف نبعَ الماءُ من بين أصابعهِ ﷺ.

٤. **يقولون:** لو كان الوحي ممكناً لأوحى الله على أفراد البشـر، ولم يختص به الأنبياء ليجعلهم واسطةً بينه وبين عباده!

والجواب: إنَّ عامة البشـر ليس لديهم اسـتعداد لتلقّي الوحي عن الله لا مباشـرةً ولا بواسـطة الملَك، حتى لو جاءهم مَلَك لم يسـتطيعوا رؤيته إلا إذا ظهر في صـورة إنسـان،

حينئـذٍ يعود اللّبسُ ويبقى الإشـكـال، فقضـت الحكمـة باختيـار الرّسـل، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام:٩].

٥. **يقولون**: كيف تدلّ المعجزة على تصديق الله لرسله مع أنّنا ما رأينا الله وما سمعناه!

والجواب: إنَّ دلالة المعجزة على تصديق الرّسول كدلالة الكون على خالقه مع أنّنا ما رأينا الله وما سمعناه.

٦. **يقولون**: إنَّ القرآن الذي جاء به الوحي غير مرتّب ولا منظَّم، فلم يُفْرَد كلَّ غرضٍ من أغراضه بفصْلٍ ولا بابٍ، بل مُزِجت أغراضه مزْجاً لم يُراعَ فيه نظام التّأليف!

والجواب: إنّ مخالفة القرآن لأنظمة الكتب المؤلّفة لا تعتبر عيباً فيه ولا في وحيه ولا موحيه، بل هي على العكس دليلٌ ماديٌّ على أنّه ليس من وضـع البشـر، وهذا المزيج الذي نجده في بعض سوره له أثرٌ بالغٌ في لذّة قارئة وتشويق مستمعه، فهو كروضةٍ يانعةٍ ينتقل الإنسان بين أفيائِها متّمتعاً بكلّ الثّمرات، وهذه المزيج يقوم بين جمله وآياته تناسبٌ بارعٌ وارتباطٌ محكمٌ وائتلافٌ بديعٌ ينتهي إلى حدِّ الإعجاز، فهو معجِزٌ بسبب ترتيبه ونَظْم آياته.

٧. **يقولون**: إنَّ محمدا عصبيُّ المزاج حارّةُ أو معه مرض (الهستريا) فالوحي الذي يزعمه أعراضٌ لتلك الحال!

والجواب: إنَّ هذه فِريةٌ تدلّ على جهلهم الفاضـح بمحمّد ﷺ، فالمعروف بالأدلة القاطعة أنّه كان صبوراً حليماً، وسِع النّاس جميعاً بسعة صدره وحُسْن خُلُقِه، كان لا يجزي السّيئة بالسّيئة، ونَجَاحه في دعوته وبناؤه للدّولة والأمّة يَدحضُ هذه الفِرية.

٨. **يقولون**: إنّكم تستدلّون على الوحي بإعجاز القرآن، وتستدلون على إعجاز القرآن بما فيه من أسرار البلاغة ونحن لا ندرك تلك الأسرار!

والجواب: إنّ إعجاز القرآن من جهة نظمه وأسلوبه ومعارفه وتشريعاته مِمّا لا يختلف اثنان فيه، وقد أجمع على ذلك القريب والبعيد والعدوّ والصّديق، ولا ينكر ذلك إلا مريضٌ مهوسٌ.

قد تُنكر العينُ ضوَءِ الشَّمسِ من رَمَدٍ ويُنكر الفمُ طعم الماءِ من سَقَمِ

٩. **يقولون:** إنّ إعجاز القرآن للعَرب لا يدلّ على أنَّ القرآن كلام الله بل هو كلام محمدٍ نسبَه إلى ربّه، ومحمّد كان الفرد الكامل في بيانه بين قومه!

والجواب: إنَّ الفرق بين القرآن والحديث النّبوي واسعٌ وكبيرٌ، والعرب وقفوا أمام القرآن عاجزين بعد أن تحداهم أنْ يأتوا بمثله، والقرآن جاءهم من أوسع الأبواب وتحدّاهم من النّاحية التي نْبَغُوا فيها. ولو كان القرآن من عند محمّدٍ لما أَجَّلَ الإجابةَ على الأسئلةِ التي وردت عليه، ولَمَا أجَّل بيانَ الحكم في الوقائع التي حصلت، ومحمدٌ هو الصّادق المصدوق يقبلون رأيه ويرضون بحكمه، فما كان ليذر الكذب على النّاس ويكذب على الله.

وكذلك نجد في القرآن عِتاباً لمحمد ﷺ كقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[التوبة: ٤٣]. وفي قصّة زيد بن حارثة والزّواج من زينب الدَّليل الواضح على أنّ هذا القرآن من عند الله تعالى.

تعريف القرآن الكريم

كلام الله تعالى، نزل به الرّوح الأمين، على قلب محمّدٍ ﷺ، بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، المتعبّد بتلاوته، ونُقِلَ إلينا نقلاً متواتراً كتابةً ومشافهةً، الذي أعجز البشر عن الإتيان بمثله، المكتوب بالمصاحف، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة النّاس.

كلام الله تعالى: خرج كلام الرّسول ﷺ، وكلام سائر الرّسل، والملائكة.

نزل به الرّوح الأمين: خرج ما نزل به ميكائيل فلا يسمى قرآناً، وخرج ما استأثر الله به، قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩].

على قلب محمّدٍ ﷺ: خرج ما نزل على غيره من الأنبياء كالتوراة والإنجيل والزّبور والصّحف.

بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ: خرج ما نزل بغير اللّغة العربية.

المتعبّد بتلاوته: خرج الأحاديث القدسية، والآيات المنسوخة تلاوةً.

ونُقِلَ إلينا نقلاً متواتراً كتابةً ومشافهةً: خرج الأحاديث القدسية غير المتواترة، والقراءة الشّاذّة.

الذي أعجز البشر عن الإتيان بمثله: خرج الأحاديث القدسية، والآيات المنسوخة تلاوةً.

المكتوب بالمصاحف: خرجت الآيات المنسوخة تلاوة أيضاً، والقراءة الشّاذة.

المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة النّاس: تأكيدٌ لكلّ القيود، وتقويةٌ لها.

أسماء القرآن الكريم

للقرآن أسماءٌ كثيرةٌ أوصلها الزّركشي في (البرهان) إلى خمسةٍ وخمسين اسماً. **أشهرها**: القرآنُ الكريم، والفرقانُ، والتنزيلُ، والذّكرُ، والكتابُ المبينُ، وحبلُ الله، وكلامُ الله.

- فأمّا تسميته بالقرآن فقد جاء في آياتٍ كثيرةٍ، منها قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق:١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧].
- وأمّا تسميته بالفرقان ففي قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].
- وأمّا تسميته بالتنزيل ففي قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشعراء].
- وأمّا تسميته بالذّكر ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].
- وأمّا تسميته بالكتاب المبين ففي قوله تعالى: ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [الدخان].
- وأمّا تسميته حبل الله ففي قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].
- وأمّا تسميته بكلام الله ففي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

صفات القرآن الكريم

وصف الله تبارك وتعالى القرآن بأوصافٍ جليلةٍ منها: نور، وهدى، ورحمة، وشفاء، وموعظة، وعزيز، ومبارك، وبشير، ونذير، وقلّما تخلو سورةٌ من ذلك منها:

١. العظيم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

٢. الكريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ [الواقعة].

٣. المجيد: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١].

٤. الحكيم: ﴿يٰسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [ياسين].

٥. مبارك: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي

١. القرآن يُنسب إلى الله لفظه ومعناه، والحديث القدسي يُنسب إلى الله معناه دون لفظه، بسبب أنَّ النّبيّ ﷺ يرويه أو يحكيه عن ربّه عزّ وجل، ولكن عندما يقول الرّاوي: "قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى"، فلا يبعُد أنْ يُنْسَبَ إلى الله لفظه ومعناه.

٢. القرآن الكريم نُقل إلينا بالتواتر، والحديث القدسي فيه الصّحيح والحسن والضّعيف، بل والموضوع.

٣. القرآن تحدَّى الرّسولُ ﷺ به النّاسَ، والحديث القدسي لم يحصل به التّحدي.

٤. القرآن متعبّدٌ بتلاوته ويُقرأ في الصلاّة، والحديث القدسي لم يَرِد فيه أنَّ قراءة الحرف بعشرِ حسنات، ولم يُقْرأ به في الصّلاة.

أنواع العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم

١- بنزوله وهي:

المكّي والمدني، الحضري والسّفري، النّهاري واللّيلي، الصّيفي والشّتائي، الفراشي والنّومي، أسباب النزول، أوّل ما نزل، آخر ما نزل، ما عُرف وقت نزوله، ما أُنزل عليه ولم ينزل على أحدٍ من الأنبياء، ما أُنزل منه على الأنبياء، ما تكرر نزوله، ما نزل مفرقاً، ما نزل جمعاً، كيفية إنزاله.

٢- بسنده وهي:

المتواتر، الآحاد، الشاذ، قراءات النّبيّ ﷺ، الرواة والحفّاظ، كيفية التّحمل، العالي، النّازل، المسلسل.

٣- بأدائه وهي:

الابتداء، الوقف، الإمالة، المدّ، تخفيف الهمزة، الإدغام، الإخفاء، الإقلاب، مخارج الحروف.

٤- بمفرداته وهي:

الغريب، المعرَّب، المجاز، المشترك، المترادف، المحكم والمتشابه، المشكل، المجمل والمبين.

٥- بجمله وتراكيبه وهي:

التشبيه، الكناية، التعريض، العام الباقي على عمومه، العام المخصوص، العام الذي أُريد به الخصوص، ما خَصَّ فيه الكتابُ السّنّة، ما خصَّت فيه السّنّةُ الكتاب، المؤوّل، المفهوم، المطلق والمقيّد، النّاسخ والمنسوخ.

٦- بمعانيه:

ما عمل به واحدٌ ثمّ نُسِخ، ما كان واجباً على واحدٍ، الإيجاز، الإطناب، المساواة، الأشباه، الفصل والوصل، القصر، الاحْتباك، القول بالموجب، المطابقة، المناسبة، المجانسة، التّورية، الاستخدام، اللّف والنّشر، الالتفات، الفواصل، الغايات، أفضل القرآن وفاضله ومفضوله، مفردات القرآن، الأمثال، آداب القارئ والمقرئ.

نزول القرآن الكريم

إنّ العلم به أهم مباحث علوم القرآن، لأنّه أساسٌ للإيمان بالقرآن وأنّه كلام الله، وأساسٌ للتّصديق بنبوة محمّدٍ ﷺ، وأنّ الإسلام حقٌّ، ثمّ هو أصلٌ لِسَائرِ المباحث في علوم القرآن.

ولأجل الإحاطة بهذا المطلب نذكر:

١. معنى نزول القرآن.

٢. عدد مرات هذا النّزول، ودليل كلّ نزولٍ، وكيفيته، وحكمته، ومدّته.

معنى نزول القرآن

قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

تقول: نزل فلانٌ المدينة: حلَّ بها، والإنزال: إحلال الغير بمكانٍ، ويُطلق النّزول على الانحدار من علوٍّ إلى أسفل، تقول: نزل فلانٌ من الجبل. والإنزال: تحريك الشّيء من علوٍّ إلى أسفل.

أمّا نزول القرآن الكريم: فالله أعلم بكيفيته.

وتنزّلات القرآن ثلاثةٌ

١. التّنزّل الأوّل للقرآن:

التّنزّل إلى اللّوح المحفوظ، ودليله قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج] وكان هذا الوجود في اللّوح المحفوظ بطريقةٍ وفي وقتٍ لا يعلمه إلا الله، ومَنْ أطلَعه على غيبه، وكان جملةً لا مفرقاً.

واللّوح المحفوظُ سِجِلٌّ جامِعٌ لكلِّ ما قضى الله وقدّر، وكلّ ما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين، فهو شاهدٌ ناطقٌ على عظمة الله وعلْمِه وإرادته وحِكمته

وقدرته قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [ياسين: ١٢].

٢. التّنزّل الثّاني للقرآن:

كان هذا التّنزّل إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا، والدّليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١]، و﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ [الدخان: ٣]، و﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، دلّت هذه الآيات الثّلاثة على أنَّ القرآن أُنزل في ليلةٍ واحدةٍ وتُسمّى ليلةَ القدر، وهي ليلةٌ مباركةٌ، وهي من ليالي شهر رمضان، وهذا يَجْمَعُ بين النّصوص ويدفع التّعارض بينها. ومعلومٌ بالأدلة القاطعة أنَّ القرآن أُنزل على النّبيّ ﷺ مفرقاً لا في ليلةٍ واحدةٍ فدلَّ على أنَّ النزول هذا غير النزول على النّبيّ ﷺ، وقد جاءت الأخبارُ الصّحيحة مبيّنةً لمكان هذا النّزول أنّه في بيت العزة في السّماء، منها:

١. عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: "فُصِلَ القرآن عن الذّكر فوضِعَ في بيت العزّة في السّماء الدّنيا فَجَعَل جبريل ينزل به على النّبيّ ﷺ"(١).

٢. عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "أُنزل القرآن جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا ليلة القدر، ثمَّ أُنزِلَ بعد ذلك في عشرين سنةً ثمّ قرأ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]، ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء:١٠٦]"(٢).

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢٨٨١)، قال الذهبي: صحيح.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢٨٧٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٤٩).

هذه أحاديثُ صـــحيحةٌ موقوفةٌ على ابن عباس ﷺ، وحكمها حكم المرفوع لأنّه لا مجال للرأي فيها، وليست بالأخذ من الإسرائيليات(١).

٣. التّنزّل الثّالث للقرآن:

هو واسطةُ العِقْدِ لأنَّه المرحلة الأخيرة التي منها شعَّ النّور على العالم، ووصلت الهداية إلى الخلق، وكان هذا النّزول بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السّلام يهبط به على قلب النّبيّ ﷺ، والذي نزل به جبريل هو القرآن بألفاظه المعجزة من أوّل الفاتحة إلى آخر سورة النّاس. والقرآن كلام الله وحده، وليس لجبريل في هذا القرآن إلا حكايته للرّسول ﷺ وإيحاؤه إليه، وليس للرّسول ﷺ في القرآن إلا وعيه وحفظه، ثمّ حكايته وتبليغه، ثمّ بيانه وتفسيره، ثم تطبيقه وتنفيذه: ﴿إِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النّمل: ٦].

مدّة هذا النّزول [النّزول الثّالث]:

ابتدأ نزول القرآن من مبعثه ﷺ وانتهى بقرب انتهاء حياته الشّريفة، وتقدّر هذه المدة بثلاثٍ وعشرين سنةً تقريباً، والدّليل على نزوله متفرقاً:

١. قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

٢. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان].

(١) انتهى باختصار من مناهل العرفان (٢٣/١).

الحكمة في نزوله منجّماً:

أولاً: تثبيت قلب النّبيّ ﷺ وذلك من وجوهٍ خمسةٍ:

١- في تجدُّد الوحي وتكرار نزول الملَكِ بهِ سـرورٌ له ﷺ، ودليلٌ على عناية الله به.

٢- في التّنجيم تيسيرُ حفظه، وفهمه، ومعرفة أحكامه.

٣- في كلِّ نوبةٍ من نوبات هذا النّزول المنجّم معجزةٌ جديدةٌ حيث تحدّاهم أنْ يأتوا بسورةٍ مثلَه أو آيةٍ.

٤- في تأييد حقّه ودحض باطل عدوه المرّة بعد الأخرى: تكراراً لِلذّة فوزه وانتصاره.

٥- تعهّد الله إيّاه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يهوّن عليه الشّدائد وتسليته عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: ١٢٠]، وعن طريق الوعد بالنّصر والحفظ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وما أجمل قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى].

ثانياً: التدرج في تربية هذه الأمّة علماً وعملاً وفي ذلك خمسةِ أمورٍ:

١- تيسير حفظه على الصَّحابة.

٢- تسهيل فهمه عليهم.

٣- التمهيد لكمال تخليهم عن العقائد الباطنية، وعباداتهم الفاسدة، وعاداتهم المرذولة.

٤- التّمهيد لكمال تَحَلِّيهِم بالعقائد الحقّة، والعبادات الصّحيحة، والأخلاق الفاضلة.

٥- تثبيتُ قلوب المؤمنين، وتَسْليحُهم بعزيمة الصّبر بسبب ما يقصّ عليهم من أخبار النّبيين والمرسلين وما جرى بينهم وبين أعدائهم.

ثالثاً: مسايرة الحوادث والطّوارئ في تجدّدها وتفرقها، فكلّما جدَّ منها جديدٌ نزل من القرآن ما يناسبه، وفصّل لهم من الأحكام ما يوافقه، وتنتظم هذه في أمورٍ أربعةٍ:

١- إجابة السّائلين على أسئلتهم عندما يوجّهونها لَغَرضِ التثبت من رسالته، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء:٨٥]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، أو لغرض المعرفة، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠].

٢- مجاراة الأقضية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها، منها: حديث الإفك والمجادلة والملاعنة.

٣- لفت أنظار المسلمين لتصحيح أغلاطهم التي يخطئون فيها وإرشادهم إلى شاكلة الصّواب، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة].

٤- كشف حال أعداء الله المنافقين، وهتك سرائرهم للنّبيّ ﷺ والمسلمين كي يأخذوا حذْرهم ويأمَنُوا شرّهم، وحتّى يتوب مَن شاء منهم،

كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ [المنافقون].

رابعاً: الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنّه كلام الله وحده، وبيان ذلك:

أنّ القرآن الكريم نقرؤه من أوّله إلى آخره فإذا هو مُحْكَم السَّرْد، دقيق السَّبك، متين الأسلوب، قويُّ الاتّصال، آخذٌ بعضُه برقاب بعضٍ، في سُوَرِه وآياته، يجري الإعجاز فيه كلّه من ألفه إلى يائه كأنّه سبيكةٌ واحدةٌ، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النّساء: ٨٢].

أوّلُ ما نزل من القرآن الكريم

الصّحيح المشهور أنّ أوّل آياتٍ نزلت من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق]، لما رواه الشّيخان عن عائشة ﵂ في حديث بَدء الوحي[1]. وأوّل ما نزل بعد فترة الوحي آياتُ سورة المدّثر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر].

آخرُ ما نزل من القرآن الكريم

عن ابن عباسٍ ﵄ آخرُ ما نزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: ٢٧٨]. وعن ابن عباسٍ ﵄ آخرُ ما نزل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وروي أنّ آخر ما نزل آية المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. ورُوي آخرُ ما نزل: سورة النَّصْر.

والجمع بين الأدلة أنّ آية المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] نزلت يوم عرفة وهي آخرُ ما نزل من الحلال والحرام،

(١) رواه البخاري (٤)، ومسلم (١٦٠).

وأنّ سورة النّصْر نزلت في أيام التشريق، وأنّ آية: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] نزلت بعد انتهائه ﷺ من حجّة الوداع. وسورة النّصْر آخرُ سورةٍ نزلت، وآية: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] آخر ما نزل على الإطلاق.

خصيصةُ حفظ القرآن الكريم
ومقارنتها بواقع الكتب الأخرى المحرّفة

من عوامل حفظ القرآن الكريم

١. العرب أُمّةٌ أميّةٌ لا يُعَوّلون إلا على حافظتهم وذاكرتهم، والكتابة كان الغرض منها زيادة التّوثق والاحتياط للقرآن الكريم.

٢. وجود الرّسول ﷺ بين ظَهْرَانَيهم يُحَفِّظُهم ويُعلمهم ويجيبهم إذا سَأَلوا.

٣. بساطة الأمّة، وبعدُها عن التّرف هذا ساعد على حفظ القرآن الكريم، وتوفير الوقت والجهد.

٤. نزول القرآن باللّغة العربية، ساعدَ كثيراً على حفظه أيضاً.

٥. اقتران القرآن بالإعجاز فلا تخلو سورةٌ ولا آيةٌ منه.

٦. ذكاء الصّحابة وقوّة حافظتهم، وحبّهم الصّادق لله من أقوى العوامل على حفظهم كتاب الله عزّوجلّ.

٧. الترغيب في حفظ القرآن الكريم وتعلّمه وتعليمه، قال ﷺ: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعلَّمَ القرآن وعلَّمَه"(١).

٨. منزلة القرآن الكريم في الإسلام، فهو المصدر الأوّل للتشريع.

٩. ارتباط القرآن الكريم بوقائع وحوادث وأسئلةٍ مما جعلهم مرتبطين به.

(١) رواه الترمذي (٢٩٠٧).

وهناك عوامل مباشرة لحفظ القرآن الكريم

١. إنّ الله تحدّى بالقرآن أمّةَ العربِ بل كافَّة الخلق فقال: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ [الطّور:٣٤]، ولما عجزوا قال: ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [هود:١٣]، ولما عَجَزوا أيضاً قال: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، ولما عَجَزوا الثّالثة سجّل هزيمتهم إذ قال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨]. هذا التحدّي دفع إلى حفْظِه ونقْلِه وجريانِه على كلّ لسانٍ.

٢. عنايتُه ﷺ بكتابته، والكتابة تُيسّرُ الحفظ.

٣. تشريع قراءته في الصّلاة، فرضاً، ونفلاً، سراً، أو جهراً.

٤. التّرغيب في تلاوته ولو في غير صلاةٍ ومن غير وضوءٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر: ٢٨-٢٩].

٥. عناية الرّسول ﷺ بتعليمه وإذاعتِه ونشرِه إذْ كان يقرؤه على النّاس على مكْثٍ، وكان يُسْمعهم إيّاه في الخطبة والصّلاة وفي الدّروس والعِظات وفي الدّعوة والإرشاد، وفي الفتوى والقضاء، ويرسل المعلّمين إلى كلّ بلدٍ، أَرسل مصعب بن عُمير إلى المدينة، وأرسل معاذ بن جبل إلى مكّة بعد الفتح، ثمّ إلى اليمن، قال عُبادة بن الصّامت: "إذا هاجر الرجلُ دفعهَ النّبيّ ﷺ إلى رجلٍ منّا يعلّمه القرآن"(١).

٦. القداسة التي امتاز بها كتاب الله عن كلّ ما سواه، من كونه كلام الله، ومن حُرمة قراءته على الجنُب والحائض والنُّفساء، وكحرمة مسّه عليهم وعلى غير المتوضئ.

(١) رواه أحمد (٢١٧٠٣).

وفوق هـذه الأمور كلّهـا تعهّـد الله بحفظـه بقولـه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩] بينما الكتب السّـماوية أوكل الله حفظَها إلى أممها فضـيّعتها. ولا يوجد أيّ رجلٍ من رجال الكهنوت مَن يحفظ الإنجيل، ولا مِن أحبار اليهود مَن يحفظ التّوراة ولا الزّبور.

والواقع أنّ هذه الكتب التي نزلت من السّـماء لم يبقَ منها إلا اسمها وبعض الأشـياء، لقد أُحرقت بكاملها، وأُلِّفَت فيما بعدُ على ألسنة بعض مَن يتذكّر منها شيئاً، فالأناجيل /٧٢/ اختصرت إلى ستّةٍ، والمتداول الآن أربعةٌ، وهي متناقضةٌ مع بعضها، بل كلٌّ منها فيه تناقضٌ، ممّا يدلّ دلالةً واضـحةً على أنّه ليس من عند الله، ولقد عمل بُولس على تحريفها وتزييفها، وتشتمل على عبارات الشّرك، ومناقضات التوحيد مما تشمئزُّ منه الأبدان وتنفر منه القلوب، عدا عن الكلماتِ التي تدل على السُّخف وتتنافى مع قداسة الدّين وطهارتِه.

واقرأ كتاب: (إظهار الحق)[1] فإنّك ستجد العجب العُجاب.

(١) تأليف الشيخ رحمة الله الكيرواني.

ترتيب آيات القرآن وسوره

آيات القرآن جمع آيةٍ، والآية تُطلق لغةً على أمورٍ:

١. المعجزة، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ﴾ [البقرة:٢١١].

٢. العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أي علامة ملكة.

٣. العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ [آل عمران: ٤٩] أي عبرة.

٤. البرهان والدّليل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ [الروم: ٢٢].

ثم خُصّت في الاصطلاح: بأنّها طائفةٌ ذات مطلعٍ ومقطعٍ، مندرجةٌ في سورةٍ من القرآن.

والآيةُ القرآنية معجزةٌ وعلامةٌ على صِدْق النّبيّ ﷺ، وفيها عِبرةٌ وذكرى لمن أراد أنْ يتذكّر، وهي دليلٌ على قدرة الله وعلمه وحكمته سبحانه وتعالى.

طريقة معرفة الآية

لا سبيل لذلك إلا بتوقيفٍ من الشّارع إذْ ليس للقياس والرأي مجالٌ فيها، عن أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه قال: "كنتُ أصلّي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجِبْهُ، ثمّ أتيتُه فقلتُ: يا رسول الله، إنّي كنتُ أُصلّي فقال: ألمْ يقل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ثمّ قال: لأعلمنّك سورةً هي أعظم السّور في القرآن قبل أنْ تخرجَ من المسجد، ثمّ أخذَ بيدي، فلمّا أراد أنْ يخرجَ قلتُ له: ألمْ تَقُل: لأعلمنّك سورةً هي أعظم سورةٍ في القرآن، قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هي السّبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيتُه"(١).

(١) رواه البخاري (٤٤٧٤)، والترمذي (٢٨٧٥)، والنسائي (٧٣٢).

فهذا يدلّ على أنّ الفاتحة سبعُ آياتٍ، وأنّها المرادة بالسّبع المثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

وعن أبي هريرة ﷺ أنّه قال: قال النّبيّ ﷺ: "إنّ لكلّ شيءٍ سَناماً، وإنّ سَنام القرآن سورةُ البقرة، وفيها آيةٌ هي سيدةُ آي القرآن: آية الكرسي"(١).

وعن أُبيّ كعب ﷺ قال رسول الله ﷺ: "يا أبا المنذر، أتدري أيّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم"، قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فضرب في صدري وقال: "ليهنَكَ العلم أبا المنذر"(٢).

وقال ابن العربي: "ذَكَرَ النّبيّ ﷺ أنّ الفاتحة سبعُ آيات، وأنَّ سورة الملك ثلاثون آية"٣.

عدد آيات القرآن(٤)

قال صاحب التّبيان: "وأمّا عدد آيات القرآن فقد اتّفق العادُّون على أنّه ستة آلاف ومائتا آيةٍ وكسرٍ، إلا أنّ هذا الكسر يختلف مبلغه باختلاف أعدادهم".

وسبب الاختلاف في الكسر: أنَّ النّبيّ ﷺ كان يقف على رؤوسِ الآية تعليماً لأصحابه أنّها رؤوس آيةٍ، حتى إذا علموا ذلك وَصَلَ ﷺ الآية بما بعدها طلباً لتمام المعنى، فيظُنّ البعض أنَّ ما وقف عليه النّبيّ ﷺ ليس فاصلةً فَيَصِلُهَا بما بعدها، ويعتبر الجميعَ آيةً واحدةً، والبعض يعتبرها آيةً مستقلةً فلا يَصِلُهَا بما بعدها.

وآياتُ القرآن مختلفةٌ بالطّول والقِصَر، فأطول آيةٍ هي آية الدَّين في سورة البقرة. وأقصر آيةٍ كلمة (ياسين) الواقعة في صدر سورة (ياسين).

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٧٨).

(٢) رواه مسلم (٨١٠)، وأبو داود (١٤٦٠).

(٣) أحكام القرآن (١٠/١).

(٤) مختصراً من مناهل العرفان (٢٥٥/١).

فوائد معرفة الآيات

١. العلم بأنّ كلّ ثلاثِ آياتٍ قصارٍ معجزةٌ للنّبيّ ﷺ، وفي حكمها الآية الطّويلة التي تعدل بطولها تلك الثّلاث القصار، ووجه ذلك: أنّ الله تعالى أعلن التّحدي بالسّورة الواحدة فقال سبحانه: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة:٢٣]، والسّورة تصدق بأقصر سورةٍ كما تصدق بأطول سورةٍ، وأقصرُ سورةٍ في القرآن هي سورة الكوثر، وهي ثلاث آياتٍ قصارٍ، فثبت أنّ كلّ ثلاث آياتٍ قصارٍ معجزةٌ وفي قوّتها الآية الواحدة الطّويلة التي تكافئها.

٢. حُسْنُ الوقف على رؤوس الآية، عن أمّ سلمة رضي الله عنها: "أنّ النّبيّ ﷺ كان إذا قرأ قطَّع قراءته آيةً آيةً، يقول: بسم الله الرّحمن الرّحيم، ثمّ يقفْ، الحمدُ لله ربِّ العالمين، ثمّ يقفْ، الرّحمن الرّحيم، ثم يقفْ"(١).

٣. اعتبار الآية في الصّلاة والخطبة حيث يترتّب عليها أحكامٌ فقهيةٌ.

ترتيب آيات القرآن

انعقد إجماع الأمّة على أنّ ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النّمط الذي نراه اليوم في المصاحف كان بتوقيفٍ من النّبيّ ﷺ عن الله تعالى، وأنّه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه، بل كان جبريل ينزل بالآيات على الرّسول ﷺ ويرشده إلى موضع كلّ آيةٍ من سورتها، ثمّ يقرؤها النّبيّ ﷺ على أصحابه، ويأمر كُتّاب الوحي بكتابتها معيّناً لهم السّورة التي تكون فيها الآية، وموضع الآية من هذه السّورة.

وكان يتلوه عليهم مراراً وتكراراً في صلاته، وعِظاته، وفي حُكْمِه وأحكامه، وكان يعارِض به جبريل كلّ عامٍ مرّةً، وعارض به في العام الأخير مرتين، كلّ ذلك على الترتيب المعروف في المصاحف.

(١) رواه البخاري (٢٩٢٧).

وكذلك كان كلّ مَن حفظ القرآن أو شيئاً منه من الصّحابة حَفِظَه مُرَتّبَ الآيات على هذا النّمط، وشاع ذلك وذاع وملأ البقاع والأسماع، يتدارسونه فيما بينهم ويقرؤونه في صلاتهم، ويأخذه بعضهم عن بعضٍ، ويسمعه بعضهم من بعضٍ بالترتيب القائم الآن، فليس لواحدٍ من الصّحابة والخلفاء الراشدين يدٌ ولا تَصرفٌ في ترتيب شيءٍ من آيات القرآن الكريم.

بل الجمع الذي كان على عهد أبي بكر ﷺ لم يتجاوز نقل القرآن من العُسُب[1] واللِّخاف[2] وغيرها في صحفٍ.

والجمع الذي كان على عهد عثمان ﷺ لم يتجاوز نقله من الصّحف في مصاحفٍ، وكِلَا هَذَين كان وفق التّرتيب المحفوظ المستفيض عن النّبيّ ﷺ عن الله عزّ وجلّ، أَجَل انعقَدَ الإجماع على ذلك تاماً لا ريب فيه[3].

واستند هذا الإجماع إلى نصوصٍ كثيرةٍ، منها:

ما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص ﷺ قال: كنتُ جالساً عند النّبيّ ﷺ إذ شَخَصَ ببصره ثم صَوَّبه ثم قال: "أتاني جبريل فأمرني أنْ أضعَ هذه الآية هذا الموضع من السّورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النّحل: ٩٠] الخ"[4].

ومنها ما ثبت في السّنن الصّحيحة من قراءة النّبيّ ﷺ بسورٍ عديدةٍ فكان يقرؤها مرتبةَ الآيات على النّحو الذي في المصحف على مرأى ومسمعٍ من الصّحابة الكرام.

---

(١) جريدَةٌ من النّخل وهي السَّعَفَة مما لا يَنْبُتُ عليه الخُوصُ. لسان العرب (٥٩٨/١).

(٢) حجارةٌ بيضٌ رِقاق، واحدتها لخفة بوزن صَحْفة. مختار الصّحاح (٧٦).

(٣) انظر: مناهل العرفان (ص٣٤٠).

(٤) رواه أحمد (٢٧٧٠).

ومنها ما أخرجه البخاري عن ابن الزّبير ﷺ قال: قلت لعثمان بن عفان ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] نسختها الآية الأخرى فَلِمَ تَكْتُبُهَا أو تَدَعُهَا [والمعنى لماذا تتركها مكتوبةً مع أنّها منسوخة] قال: "يا ابن أخي: "لا أغيّر شيئاً من مكانه"(١).

ترتيب السّور

معنى السّورة: لغةً: المنزلة، والشّرف، وما طال من البناء وحَسُن.

ويمكننا تعريفها اصطلاحاً بأنّها: طائفةٌ مستقلةٌ من آيات القرآن الكريم، ذات مطلعٍ ومقطعٍ، وهي مأخوذةٌ من السُّور سورِ المدينة، وهي حِصْنٌ باعتبار أنّها معجزةٌ تُخْرِسُ كلّ مكابرٍ، وفيها علوٌّ ورِفعةٌ.

وسور القرآن مختلفةٌ طولاً وقصراً، فأقصر سورةٍ: سورة الكوثر، وأطول سورةٍ: سورة البقرة.

حكمة تسوير السّور: التيسير، والدّلالة على موضوع الحديث، والتنشيط لحفظ القرآن، وهذه الحِكَم أيضاً حِكَمُ تَجَزُّيءِ القرآن أجزاءاً.

أقسام السّور:

قسّم العلماء سور القرآن أربعة أقسام: الطِوال والمئين والمثاني والمفصَّل.

الطِوال: سبع سور: (البقرة، وآل عمران، والنّساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف)، فهذه ستةٌ والسّابعة: (الأنفال أو براءة).

المئون: السّور التي تزيد آياتها على مائةٍ أو تقاربها.

المثاني: السّور التي تلي المئين في عدد الآيات.

المفصّل: وهو أواخر القرآن، وصَحَّحَ النّووي أنّ أوله الحُجُرات، وسُمِيَ بالمفصَّل لكَثرة الفصل بين سوره بالبسملة، وقيل: لقلّة المنسوخ فيه، ولهذا يُسمَّى بالمحكم، كما

(١) رواه البخاري (٤٥٣٠).

روى البخاري عن سعيد بن جبير: "إنّ الذي تدعونه المفصّل هو المحكَم"(١)، والمفصّلُ ثلاثةُ أقسامٍ: طِوالٌ وأوساطٌ وقِصارٌ.

فالطِّوال: من الحجرات إلى البروج، **وأوساطه**: من سورة والطّارق إلى سورة (لم يكنْ)، **وقصاره**: من سورة (إذا زلزلت) إلى آخر القرآن.

المذاهب في ترتيب السّور:

اختلف في ترتيب السّور على ثلاثة أقوال:

الأول: إنّ ترتيب السّور اجتهادي، ونُسب هذا القول لمالك والقاضي أبي بكر، وأشار إلى هذا المذهب ابن فارس بقوله: "جمع القرآن على ضربين: أحدها تأليفُ السّور كتقديم السّبع الطّوال وتعقيبها بالمئين فهذا الذي تولته الصّحابة. وأما الجمع الآخر وهو جمع الآيات في السّور فذلك شيءٌ تولاه النّبيّ ﷺ، كما أخبر به جبريل عن أمر ربّه عزّ وجلّ"(٢).

واستدل أصحاب هذا الرأي على ذلك بأمرين:

أ. اختلاف مصاحف الصَّحابة في ترتيب السّور، فمصحف أُبَيّ ﷺ كان مبدوءاً بالفاتحة ثمّ بالبقرة ثمّ بالنّساء ثمّ الأنعام.

ومصحف ابن مسعود ﷺ كان مبدوءاً بالبقرة ثم بالنّساء ثمّ آل عمران، ومصحف عليّ ﷺ كان مرتباً على النّزول، فأوّله (اقرأ) ثمّ (المدثر) ثمّ (ق) ثمّ (المزمّل) ثمّ (تبَّت) ثمّ (التكوير)، وهكذا إلى آخر المكي والمدني.

(١) رواه البخاري (٥٠٣٥).

(٢) مناهل العرفان (٢٦١/١).

ب. ما أخرجه ابن أبي داود في المصـــاحف من طريق إسماعيل بن عبّاس عن حبّان بن يحيى عن أبي محمّد القرشـــي قال: "أَمَرَهم عثمان ﷺ أنْ يُتابعوا الطّوال، فجعل سورة الأنفال وسورة التّوبة في السّبع، ولم يفصل بينهما ببسم الله الرّحمن الرَّحيم"(١).

الثاني: ترتيب السّور توقيفي بتعليم الرّسول ﷺ كترتيب الآيات، وأنّه لم تُوضع سورةٌ في مكانها إلا بأمرٍ من الرّسول ﷺ، واستدل أصحاب هذا الرأي بأنّ الصّحابة أجمعوا على المصـــحف الذي كُتِب في عهد عثمان ولم يخالف منهم أحدٌ، وإجماعهم لا يتم إلا عن توقيفٍ، ولو كان عن اجتهادٍ لتمَسَّـــك كلٌّ برأيه، وعَدَلوا عن مصـــاحفهم وأحرقوها، واستدل أصحاب هذا الرأي بما يلي:

أ. عن حذيفة الثقفي قال: كنت في الوفد الذين أســـلموا من ثقيف، إلى أن قال: فقال رسـول الله ﷺ: "طرأ عَليَّ حِزْبٌ من القرآن، فأردتُ ألا أخرج حتى أقضـيه، فسـألنا أصْحاب رسول الله ﷺ قلنا: كيف تُحَزِّبون القرآن قالوا: نُحَزِّبُه ثلاث سورٍ، وخمس سورٍ، وسبع سورٍ، وتسع سورٍ، وإحدى عشر سورةٍ، وثلاث عشرة، وحزب المفصّـــل من ق حتى تَخْتُم"(٢)، فهذا يدلّ على أنّ ترتيب السّـــور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد النّبيّ ﷺ.

ب. إنّ السّور المتجانسة في القرآن لم يُلتزم فيها الترتيب والوَلاء ولو كان الأمر اجتهادياً للوحظ التجانس، مثلاً: المسَـــبّحَات فُصِـــلَ بينهما (بقد سمع) و(الممتحنة) و(المنافقون)، و(الشّعراء) و(القَصص) فُصِلَ بينهما ب (طس).

ج. روى واثلة ﷺ عن رسـول الله ﷺ قال: "أُعطيت مكان التّوراة السّـبع الطّوال"(٣). وقال أبو بكر الأنباري: "أَنزل الله القرآن إلى سماء الدّنيا، ثم فرّقه في بضعٍ وعشرين

(١) المصاحف لابن أبي داود (٨٣).

(٢) رواه أبو داود (١٣٩٣).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٥١٤).

سنةٍ، فكانت السّورة تُنزل لأمرٍ يَحدُث، والآية جواباً لمسْتَخْبِر، يُوقِفُ جبريلُ النبيَّ ﷺ على موضع السّورة والآيات والحروف، كلُّه من النّبيّ ﷺ، فَمن قَدَّمَ سورةً أو أَخَّرَهَا أفسد نظام القرآن".

الثّالث: ترتيب بعض السّور توقيفي، والبعض الآخر اجتهادي، واختلف أصحاب الرأي في السّور التي جاء ترتيبها عن توقيفٍ، والسّور التي جاء ترتيبها عن اجتهادٍ.

فقال القاضي أبو محمّد ابن عطية: "إنَّ كثيراً من السّور قد عُلم ترتيبها في حياة النّبيّ ﷺ كالسّبع الطّوال، والحواميم، والمفصّل، وأمّا ما سوى ذلك يمكن أنْ يكون فُوِّضَ الأمر فيه إلى الأمّة بعده".

وقال أبو جعفر ابن الزّبير: "الآثار تشهد بأكثر مما نصّ عليه ابن عطية، ويبقى فيها قليلٌ يمكن أنْ يجريَ فيه الخلاف"(١).

قال رسول الله ﷺ: "اقْرَؤُوا الزّهراوين: البقرة وآل عمران"(٢).

وفي حديث سعيد بن خالد: "قرأ رسول الله ﷺ بالسّبع الطّوال في ركعةٍ"(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: "إنّهنّ من العِتاق الأول وهُنَّ من تِلادِي"(٤). فَذَكَرهَا نسقاً كما استقرَّ ترتيبها.

وعن عائشة: "أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلةٍ جمع كفيه ثم نَفَثَ فيها فقرأ: قل هو الله أحد، والمعوذتين"(٥).

---

(١) انظر الأقوال في مناهل العرفان (٢٦٢/١).

(٢) رواه مسلم (٨٠٤).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٦٩٩).

(٤) رواه البخاري (٤٧٠٨). (العِتاق الأول): جمع عتيق، وهو القديم، أو كل ما بلغ الغاية في الجودة. (وهنَّ مِنْ تِلاَدِي): مما حفظته قديما.

(٥) رواه البخاري (٥٠١٨).

وقال السّيوطي: "الذي ينشرح له الصّدر ما ذهب إليه البيهقي وهو: أنّ جميع السّور ترتيبها توقيفيٌّ إلا براءة والأنفال. ولا ينبغي أنْ يُستدل بقراءةِ سُورٍ أولاً على أنَّ ترتيبها كذلك، لأنَّ ترتيب السّور في القراءة ليس بواجبٍ ولعلّه فَعَلَ ذلك لبيانِ الجواز"(١).

وحاول **الزّركشي** في البرهان أنْ يجعل الخلاف لفظياً لأنّ القائل بالاجتهاد يقول: "إنّما فعلوا ذلك لعلمهم بأسباب نزوله، ومواقع كلماته"، وقد قال الإمام مالك: "إنّما ألّفوا القرآن على ما كانوا يسمعونّه من النّبيّ ﷺ"(٢). وقول الإمام هذا يعطينا أنّ ما قيل فيه باجتهاد الصّحابة كان توقيفياً أيضاً، فترجح الرأي الثّاني من كلِّ جهةٍ وهو أنَّ جمع القرآن وترتيب سوره وآياته توقيفي.

وسواءٌ كان ترتيب السّور توقيفياً أو اجتهادياً فقد قام عليه إجماع الصّحابة، وخصوصاً في كتابة المصاحف، والإجماع حُجَّة.

وما ذُكر في ترتيب الآيات يذكر هنا، وتلاوة القرآن من قِبَلِه ﷺ أمام الصَّحابة وأخْذِهِم عنه ذلك، وعرضه على جبريل مرتين في العرضة الأخيرة كلّ ذلك على الترتيب المعروف لنا في المصاحف.

وهذه الخلافات وخاصّة ما يُذكر في الرأي الأول لا يستند إلى شيءٍ واضحٍ، وما ذُكر من ترتيب بعض مصاحف الصّحابة فقد رجع عنه أصحابه فلا يُحتجّ به.

وترتيب السّور في التّلاوة ليس بواجبٍ إنّما هو مندوبٌ، يقول الإمام النّووي في كتابه التّبيان: "الاختيار أنْ يُقرأ على ترتيب المصحف في الصّلاة وغيرها، ويستحب إذا قرأ سورةً أنْ يقرأ بعدها التي تليها إلا فيما ورد الشّرع باستثنائه كصلاة الصّبح يوم الجمعة يقرأ في الأولى: (سورة السّجدة) وفي الثّانية: (هل أتى على الإنسان)، ولو خالف الموالاة جاز(٣).

---

(١) الاتقان في علوم القرآن (١/١٥٧).

(٢) البرهان في علوم القران للزركشي (١/٢٥٧).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٩٦).

وكره جماعةٌ مخالفَة ترتيب المصـــحف. عن الحســـن ﷺ: أنَّه كان يكره أنْ يقرأ القرآن إلا على تأليفه في المصـــحف، وعن عبد الله بن مســـعود ﷺ أنّه قيل له: إنّ فلاناً يقرأ القرآن منكوساً فقال: "ذلك منكوس القلب"(١).

أمّا قراءة السّـورة من آخرها لأوّلها ممنوعٌ. وأمّا تعليم الصّـبيان من آخر المصـحف إلى أوّله فَحَسنٌ وليس هذا من الباب.

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٣٠٧).

أسباب النّزول

القرآن الكريم قسمان

١- قسمٌ نزل من الله ابتداءً غيرَ مرتبط بسببٍ من الأسباب، وإنّما هو محضُ هداية الخَلقِ إلى الحقّ، من هذا القسم:

أ- قصص القرآن فهي إخبارٌ عن حوادث ماضيةٍ لتسلية الرّسول ﷺ، ولتسلية المسلمين، ولأخذ الدّروس والعِبر والعِظات منها.

ب- الإخبار عن المغيبات، فهي إخبارٌ عن أمورٍ مستقبليةٍ لمصلحةٍ شرعيةٍ.

ج- الآيات المتضمنة للأحكام ابتداءً.

٢- قسمٌ نزلَ مرتبطاً بسببٍ من الأسباب الخاصة، واسمه سبب النزول، وهو: ما نزلت الآية أو الآيات متحدثةً عنه، أو مبيّنةً لحكمة أيام وقوعه، أو جواب سؤال للنّبيّ ﷺ.

مثال ذلك:

١. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "بينما النّبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة قدمت عِيرٌ إلى المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتّى لم يَبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً، فقال ﷺ: "والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتّى لم يَبق منكم أحدٌ لسال بكم الوادي ناراً، فنزلت: ﴿إِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١][(١)].

٢. كانت خولة بنت ثعلبة تحت الأوس بن الصّامت رضي الله عنهما فقال لها: "أنت عَلَيَّ كظهر أمي"، ثمّ ندم وقال: "ما أظنّكِ إلا قد حَرُمْتِ"، فذهَبَتْ إلى النّبيّ ﷺ وشَكَتْ إليه أمْرَهَا، فقال: "حَرُمْتِ عليه". فراحت تلحّ عليه في شكواها، وظلّت

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٨٧٧).

هكذا، وكلّما قال لها النّبيّ ﷺ: "حَرُمَتِ عليه"، قالت: إلى الله أشكو فاقتي وشدّة حالتي فنزل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١][(١)].

٣. مَرَّ رسول الله ﷺ بنفرٍ من اليهود فسأله بعضهم عن الرّوح فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥][(٢)].

٤. عن أنسٍ ﷺ قال: قال عمر ﷺ: "وافقْتُ ربي في ثلاثٍ، قلتُ: يا رسول الله، لو اتّخذنا من مقام إبراهيم مُصَلًّى فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾. وقلتُ: يا رسول الله، إنّ نساءك يدخل عليهنّ البَر والفاجر، فلو أمرتهن أنْ يحتجبْن، فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة فقلتُ لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾" فنزلت كذلك[(٣)].

فوائد معرفة أسباب النّزول منها

١. فهم معنى الآية فهماً صحيحاً، فإنّ العلم بالسّبب يُورِث العلم بالمسبّب.

ولنبين ذلك بأمثلةٍ: قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ يدلّ بظاهره على أنّ للإنسان أنْ يصليَ إلى أيّ جهةٍ شاء، ولا يجب عليه أنْ يُوليَ وجهه شطر البيت الحرام، لا في سفرٍ ولا في حضرٍ، لكن إذا عَلِم أنّ هذه الآية نازلةٌ في نافلة السّفر خاصّة، أو فيمَن صلّى باجتهاده ثمّ بان له خطؤه، تبيّن له أنّ الظاهر غير مراد، إنّما المراد التخفيف على المسافر في صلاة النّافلة، أو على المجتهد في القبلة وتبيّن له خطؤه. عن ابن

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٥٦٣٧).

(٢) رواه البخاري (١٢٥).

(٣) رواه البخاري (٤٠٢).

عمر : "أنّ هذه الآية نزلت في صلاة المسافر على الرّاحلة أينما توجّهت". وقيل: "عَمِيَت القبلة على قومٍ فصلّوا إلى أنحاءٍ مختلفةٍ، فلمّا أصبحوا تبينوا خطأَهم فَعُذِرُوا"(١).

أشْكل على عروة بن الزّبير ﷺ أنْ يفهم فَرضَيّةَ السَّعي بين الصّفا والمروة مع قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فالآية نفت الجناح والإثم، ونفي الإثم لا يفيد الفرَضيّة، فردّت عليه السّيدة عائشة وبيّنت له أن الصّحابة كانوا قد تَأَثَّموا من السّعي بينهما لأنّه من عمل الجاهلية فنزلت الآية لنفي ما تَوَهَّمُوهُ وهو الإثم على مَن سعى بينهما(٢).

٢. معرفة حكمة التشريع:

مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] والحكمة بيّنت في قوله: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾.

٣. معرفة مَن نزلت فيه الآية وتعيين المبهم فيها:

ولذلك أمثلةٌ كثيرةٌ كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] فإنّ صاحب هذا الفضل هو صهيب بن سنان.

طريقة معرفة سبب النزول

الرّوايةُ الصّحيحة، فلا يحلُّ القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسّماع ممّن شاهَدُوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عنها، والقولُ فيه بغير علمٍ لا يجوز، قال ﷺ: "اتّقوا الحديث عنّي

(١) انظر: مناهل العرفان (٨٢/١).

(٢) رواه البخاري (١٦٤٣).

إلا ما علمتم، فإنّه مَن كذب عليَّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النّار، ومَن كذب على القرآن من غير علمٍ فليتبوأ مقعده من النّار"(١).

عبارات الرّواة في سبب النّزول عبارتان:

إحداهما: قولهم: سبب نزول هذه الآية كذا، وهذه نصٌّ صريحٌ في بيان سبب النّزول.

ثانيهما: قولهم: نزلت هذه الآية في كذا، وهي محتملةٌ لبيان الحكم، أو بيان السّبب، ولذلك فليست نصّاً.

موقف المفسّر من أسباب النزول إذا تعدّدت، لذلك أحوال:

١. أنْ يقول أحدهما: نزلت هذه الآية في كذا، وأنْ يقول الثّاني: سبب نزول هذه الآية كذا، فالعبارة الثّانية نصٌّ وعليها المعوّل مثاله:

عن ابن عمر ﷺ أنه قال: "أنزلت ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ في إتيان النّساء في أدبارهن(٢)، أي في تحريم ذلك وهذا من ابن عمر ﷺ استنباطٌ لبيان الحكم".

وعن جابر ﷺ قال: "كانت اليهود تقول: مَن أتى امرأتَه في قُبُلها من دبرها جاء الولد أحول، فنزل ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ الآية(٣). فإنّه صريحٌ في ذكر سبب النّزول.

٢. أنْ يقول راويان أو أكثر نزلت هذه الآية في كذا، وهذه العبارة ليست نصّاً فيُراد بها التفسير وبيان الحكم، فإذا كان اللّفظ يحتمل قول كلٍّ حُمِلَ على الجميع. ولا منافاة، وإلا تعيّن ما يقتضيه اللّفظ والأدلة.

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٥١)، ورواه أحمد في مسنده (٣٠٢٥).

(٢) رواه البخاري (٤٥٢٧).

(٣) رواه مسلم (١٤٣٥).

٣. أنْ يصرّح كلٌّ منهما بذكر السّببية ولذلك أربع حالات:

أ- أنْ يكون إحداهما بسندٍ صحيحٍ والآخر ليس بصحيحٍ فالصَّحيح هو المعتمد عليه في بيان سبب النّزول، مثال ذلك:

ما أخرجه الشّيخان وغيرهما أنّ النّبيّ ﷺ اشْتكى فلم يقمْ ليلةً أو ليلتين فأتته امرأةٌ فقالت: "يا محمّد، ما أرى شيطانك إلا قد تَرَكَكَ"، فأنزل الله سورة الضّحى إلى قوله: (فترضى)(١).

وما أخرجه الطّبراني عن حفص بن سعيدٍ عن أمّه عن أمّها وكانت خادمة رسول الله ﷺ: "أنَّ جرواً دخل بيت الرّسول ﷺ فمات تحت السَّرير، فمكث رسول الله ﷺ أربعة أيامٍ لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ؟ جبريل لا يأتيني، فقلتُ في نفسي: لو هيأتُ البيتَ، وكنستُه، فهوت بالمكنسة تحت السّرير فأخرجت الجرو، فجاء النّبيّ ﷺ ترتعد لحيته وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة، فأنزل عليه سورة (والضّحى)(٢).

فالخبر الأوّل صحيحٌ لذا كان هو المعتمد، وقد قال ابن حجر: "القصّة مشهورةٌ، ولكن كونها سبب نزولٍ غريبٌ، وفي إسناده مَن لا يُعرف"(٣).

ب- أن يستوي الإسنادان مع تعدّد السّبب ويمكن ترجيح أحدهما على الآخر بوجهٍ من وجوه التّرجيح، فالرّاجح هو السّبب، مثاله:

(١) رواه البخاري (٤٩٥٠)، ومسلم (١٧٩٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٦٣٦).

(٣) فتح الباري (٧/٥).

عن ابن مسعود ﷺ قال: "كنتُ أمشي مع النّبيّ ﷺ وهو يتوكّأ على عَسيب، فمرَّ بنفرٍ من اليهود فقال بعضهم: لو سألتموه. فسألوه عن الرّوح فنزلت:﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾"(١).

وما أخرجه الترمذي قال: "قالت قريشٌ لليهود: أعطونا شيئاً نسأله هذا الرجل فقالوا: اسألوه عن الرّوح فسألوه فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾"(٢).

فرواية البخاري أرجح من غيرها، وراويها حاضر القصّة حيث قال: "أمشي مع النّبيّ ﷺ"، ومعه زيادة وصف حيث قال: "يتوكّأ على عَسيب"، وذلك من أسباب الترجيح.

ج- أن يستوي الإسنادان في الصّحة ولا مرجّح لأحدهما: ولكن يمكن الجمع بينهما، والأخذ بهما فيُحمل ذلك على تعدّد الأسباب لآيةٍ واحدةٍ، مثاله:

ما أخرجه البخاري ابن عباس ﷺ:"أنّ هلالَ بنَ أمية قذف امرأته عند النّبيّ ﷺ بشَرِيك". فقال النّبيّ ﷺ: "البيّنةُ أو حدٌّ في ظَهْرِك"، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور:٦](٣).

وما أخرجه الشّيخان عن سهل بن سعدٍ ﷺ قال: "جاء عُويمر إلى عاصم بن عديٍّ قال: اسْأَلْ رسولَ الله أرأيتَ لو أنّ رجلاً وَجَدَ مع امرأتِه رجلاً أيقتلهُ أم كيف يصْنَع؟ فسأل عاصمٌ رسولَ الله ﷺ، فَعَابَ السّائلَ، فأخبرَ عاصمٌ عويمراً

(١) رواه البخاري (١٢٥).

(٢) رواه الترمذي (٣١٤١).

(٣) رواه البخاري (٢٦٧١).

فقال: والله لآتينَّ رسولَ اللهِ فَلَأَسْأَلَنّهُ فأتاه فقال: القصَّة، فقال النّبيّ ﷺ: "إنّه نَزَلَ فيك وفي صاحبِك قرآنٌ اللّيلةَ، وقرأ الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾(١).

ويمكن الجمع بينهما على أنّ أوّل مَن جاء يسأل هلالٌ، وصَادَفَ مجيءَ عويمرٍ قبل إجابته فنزلت الآيةُ في شأنهما.

د- أنْ يستويَ الإسناد في الصّحة ولا مرجّح لأحدهما، ولا يمكن الجمع بينهما والأخذ بهما معاً، فيُحمل ذلك على تكرّر نزول الآية الواحدة عَقِبَ كلٍّ من السّببين أو الأكثر، ولا مانع من تكرّر النّزول تعظيماً لشأن المنزَل، وتذكيراً به عند حدوث سببه حتّى لا يُنسى، مثاله:

وقوف النّبيّ ﷺ على حمزة ﷺ وقد مَثَّلَ به المشركون يوم أحدٍ فقال: "لأُمَثِلَنَّ منهم بسبعين مكانَك"، فنزلت الآية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ – لَنَزِيدَنّ – عليهم فلمّا كان يوم فتح مكّة أنزل الله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾(٢).

فيُحْمل ذلك على تعدّد النزول: مرّةً بمكّة، وأخرى يوم أُحدٍ، وثالثةً يوم فتح مكّة لِعِظَمِ شَأنها، تذكيراً لعباده وتعويداً لهم على العدل.

(١) رواه البخاري (٤٧٤٥)، ومسلم (١٤٩٢).

(٢) رواه الترمذي (٣١٢٩).

تدوين القرآن الكريم وجمعه ومناقشة الشّبهات المثارة حول ذلك

كلمة جمع القرآن تطلق على معنيين:

١. حفظه في الصّدور

٢. كتابته في السّطور

أولاً: حفظ القرآن في الصّدور

فأمّا جمعه بمعنى حفظه فقد كان النّبيّ ﷺ حريصاً على حفظه، وَبلَغَ من حرصه أنّه كان يحرّك لسانه استعجالاً لحفظه وجمعه في قلبه مخافة أنْ تفوته كلمةً أو يفْلت منه حرفٌ، وما زال كذلك حتى نزل عليه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [سورة القيامة]، ونزل عليه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤]. فاطْمأنّ لوعد ربّه وكان يقرؤه على النّاس على مُكثٍ كما أَمَرَه مولاه، وكان يحيي به اللّيل، ويُزيّن به الصّلاة، وكان جبريل يعارضه القرآن في كلّ عامٍ مرةً ثمّ عارضه في العام الأخير مرتين، فقال ﷺ: "ولا أُراه إلّا حَضَرَ أجلي"، كما روت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما قالتا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: "إنّ جبريل كان يعارضني القرآن في كلِّ سنةٍ مرةً، وإنّه عارضني العام مرتين، ولا أُراه إلا حَضَرَ أجلي"(١).

أمَّا الصّحابة رضوان الله عنهم فقد كانوا يتنافسون في حفظه، ويتسابقون إلى مدارسته، ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه، وكانوا يُصَلُّون به في الأسحار، ويتلونه باللّيل والنّاس نيامٌ، ويُسمع لهم دويٌّ كدويِّ النّحل بالقرآن.

(١) رواه البخاري (٣٦٢٤).

وكان الرّسول ﷺ يُذْكِي فيهم روح هذه العناية، ويبلّغهم ما أُنزل عليه من ربِّه، ويبعث على مَن كان بعيد الدّار منهم مَن يُعلّمُهم ويُقرئهم، كما بعث مصـــعب بن عمير وابن أمّ مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته يُعَلّماهِم الإسلام، ويُقرآهِم القرآن، وكما أرسل معاذ بن جبل إلى مكّة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء. قال رسول الله ﷺ: "خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه"(١).

وعن عائشـة رضي الله عنها قالت: قال رسـول الله ﷺ: "الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به مع السّـفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وهو يُتَعْتِعُ فيه وهو عليه شاقّ له أجران"(٢).

وعن عمر رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قـال: "إنّ الله تعـالى يرفع بهـذا الكتـاب أقوامـاً ويضـــعُ بـه آخرين"(٣).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رســول الله ﷺ يقول: "اقرؤُوا القرآن فإنّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصْحابه"(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النّبيّ ﷺ قال: "لا حَسَـــدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله القرآن فهو يقومُ به آناء اللّيل وآناء النّهار، ورجلٌ آتاه الله مالاً فهو يُنْفِقُه آناء اللّيل وآناء النّهار"(٥).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: "يُقال لصـــاحب القرآن: "اقرأ وارْقَ ورتّل كما كنتَ ترتّل في الدّنْيا، فإنّ منزلتَك عند آخر آيةٍ تقرؤُهَا"(٦).

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧).

(٢) رواه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

(٣) رواه مسلم (٨١٧).

(٤) رواه مسلم (٨٠٤).

(٥) رواه البخاري (٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥).

(٦) رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح (٢٩١٤)، وأبو داود (١٤٦٤).

وقال عُبادة بن الصّـــامت ﷺ: "كان الرّجل إذا هاجر دَفَعَهُ النّبيّ ﷺ إلى رجلٍ منّا يُعَلّمُه القرآن"(١)، وكان يُسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجّةٌ بتلاوة القرآن حتّى أَمَرَهم رسول الله ﷺ أنْ يُخفضُوا أصْواتهم لئلّا يَتَغَالَطُوا".

ومن هنا كان الحفَّاظُ في حياة الرّســـول ﷺ جمّاً غفيراً، منهم: الأربعة الخلفاء، وطلحة بن عُبيد الله، وسعد بن أبي وقّاص، وابن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله، ومعاوية، وابن الزّبير، وعبد الله بن السّائب، وعائشة، وحفصة، وأمّ سلمة ﷺ، وهؤلاء كلّهم من المهاجرين.

وحفظ القرآن من الأنصـــار في حياته ﷺ أُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو الدّرداء، ومُجمّعُ بن حارثة، وأنس بن مالك، وأبو زيد الذي سُـئِلَ عنه أنس فقال: "أَحَدُ عُمومتي"(٢) ﷺ.

وقيل: إنّ بعض هؤلاء إنما أكمَلَ حفظه للقرآن بعد وفاة النّبيّ ﷺ، وأيّاً ما تكنِ الحال فإنَّ الذين حفظوا القرآن من الصّـــحابة كانوا كثيرين، حتى كان عدد القتلى منهم ببئر معونة ويوم اليمامة أربعين ومائة.

قال القرطبي: "قد قُتِل يوم اليمامة ســـبعون من القرّاء، وقتل في عهد رســـول الله ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد"(٣).

قال المحقّق ابن الجزري: "ثم إنّ الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصّـــدور، لا على خطّ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصةٍ من الله تعالى لهذه الأمّة، ففي الحديث الصّـــحيح أنّ النّبيّ ﷺ قال: "إنَّ ربّي قال لي: قمْ في قريشٍ فأنذِرْهم، فقلتُ له: أيْ ربِّ إذنْ يَثْلَغُوا [يشدخوه] رأسي حتى يدعوه خُبْزَةً، فقال: إنّي مُبْتَلِيكَ ومبتلٍ بكَ، ومُنْزِلٌ عليك كتاباً

(١) رواه أحمد (٢٢٨١٨).

(٢) رواه البخاري (٣٨١٠).

(٣) انظر: فتح الباري (٦٥/٩).

لا يَغْسِـــلُه الماء، تقرؤه نائماً ويقظان، فابعثْ جنداً أبعثْ مثلهم، وقاتلْ بمن أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاك، وأنفقْ يُنْفَقْ عليك"[١].

فأخبرَ تعالى أنّ القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفةٍ تُغْسَل بالماء، بل يُقرأُ في كلّ حالٍ كما جاء في صفة أمّته: "أَنَاجِيلُهم صدورُهم"، وذلك بخلاف أهل الكتاب الذي لا يحفظونه إلا في الكتب"[٢].

ولا يشكلنّ في هذا المقام ما جاء عن أنسٍ ﷺ قال: "مات النّبيّ ﷺ ولم يجمعِ القرآن غير أربعةٍ: أبو الدّرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، قال: "ونحن ورثناه"[٣].

فالحصْرُ إضافيٌّ لا حقيقيٌّ بدليل ما جاءَ عن أنسٍ نفسِه أيضاً وقد سأله قتادة عن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال: "أربعةٌ كلّهم من الأنْصار: أُبيّ بن كعبٍ، ومعاذ بن جبلٍ، وزيد بن ثابتٍ، وأبو زيدٍ"[٤]، فذكر أُبيّ بن كعب دون أبي الدّرداء.

وقد جاء عن عبد الله بن عمر ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ يقول: "خُذوا القرآن عن أربعةٍ: عن عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأُبيّ بن كعب"[٥]، وفيهم اثنان من المهاجرين، واثنان من الأنصار.

وهناك رواياتٌ أخرى -حَكَى بعضهم فيها التّواتر- تُصرّح بأسماء غير الأربعة، مِنْهم: عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: "جمعتُ القرآن فقرأتُ به كلّ ليلةٍ فبلغ النّبيَّ ﷺ، فقال له: "اقْرأْه في شهرٍ"[٦].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) النّشر في القراءات العشر (٦/١).

(٣) رواه البخاري (٥٠٠٤).

(٤) رواه البخاري (٣٨١٠).

(٥) رواه البخاري (٣٨٠٨).

(٦) رواه أحمد (٦٥١٦).

وذهب بعضهم إلى أنّ الجمع في حديث أنسٍ مراد به الكتابة لا الحفظ، وبعضهم ذهب إلى أنّ المراد الجمع بوجوه القراءات كلّها، أو تلقياً ومشافهةً عن الرّسول ﷺ، أو الجمع شيئاً فشيئاً حتى تكامل نزوله.

أمّا بعد وفاته ﷺ فقد حفظ القرآن آلافٌ مؤلّفةٌ من الصّحابة رضي الله عنهم.

وتلقّاه أضعاف أضعافهم عنهم من التّابعين حفظاً وجمعاً. ويتزايد الحفظة كلّ عامٍ عمّا قبله بفضل الله تعالى، حتى أصبح الآن يحفظه ملايينٌ من المسلمين.

ثانياً: كتابة القرآن في عهد رسول الله ﷺ:

وأمّا جمعه بمعنى كتابته في عهد النّبيّ ﷺ فقد حَظِيَ القرآن بأوفى نصيبٍ من عناية الرّسول ﷺ وأصحابه، فلمْ تصرفْهُم عنايتهم بحفظه في الصّدور عن عنايتهم بكتابته وحفظه في السّطور، ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواته المتاحة لهم.

فاتَّخذ الرّسول ﷺ كُتَّاباً من الوحي، كلما نزل شيءٌ من القرآن أمرهم بكتابته مبالغَةً في تسجيله وتقييده، وزيادةً في التّوثق والضّبط والاحتياط لكتاب الله تعالى، حتى تُظَاهِرَ الكتابةُ الحفظَ، ويُعاضد النّقش اللّفظ.

وكان هؤلاء الكُتَّاب من خيرة الصّحابة: فيهم الخلفاء الأربعة، ومعاوية، وأَبَان بن سعيد، وخالد بن الوليد، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وثابت بن قيس وغيرهم، وكان ﷺ يدلّهم على موضع المكتوب من سورته فيكتبونه فيما يَسْهُل عليهم من جريد النّخل كانوا يكتبون في الطّرف العريض منها، واللّخاف: (جمع لخفة وهي الحجارة الرقيقة)، والرّقاع: (جمع رقعةٍ وقد تكون من جلدٍ أو ورقٍ أو كاغدٍ)، وقطع الأديم: (الجلد)، وعظام الأكتاف والأضلاع، ثمّ يُوضع المكتوب في بيت رسول الله ﷺ، كما كتب الصّحابة لأنفسهم على هذا الوجه أيضاً.

وهكذا انقضى العهد النّبويّ والقرآن مجموعٌ على هذا النّمط بَيْدَ أنَّه لم يُكتب في صحفٍ ولا مصاحفَ بل كُتب منثوراً.

وعن ابن عباس ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورةٌ دعا بعض مَن يكتب فقال: ضعُوا هذه السّورة في الموضع الذي يُذكر فيه كذا وكذا"(١). وعن زيد بن ثابت ﷺ قال: "كنّا عند رسول الله ﷺ نؤلّف القرآن من الرّقاع"(٢).

وكان هذا التّأليف بتوقيفٍ من جبريل فقد كان يقول: "ضعوا كذا في موضع كذا"، وذلك بأمرٍ من الله عز وجل، بيدَ أنّه لم يجُمع في مصحف واحدٍ لما يأتي:

١. لما كان يترقّبُه ﷺ من تَتَابع الوحي، إذْ لم يُعرف انتهاؤه إلا بوفاته ﷺ، فيتوقّع نسخ آيةٍ وآياتٍ.

٢. إنَّ ترتيب الآيات والسّور ليس على ترتيب النّزول، فلو جُمع لكان عُرْضَةً للتّغيير والتّبديل.

٣. كثرة القرّاء، والأمْن من الفتن، وقلّة تيسّر أسباب الكتابة، فلمْ توجد دواعي للجمع، ولو وُجِد جمعٌ لكان عُرْضَةً للتّغيير كلّما وقع نسخٌ والتعويل كانَ على الحفظ، ولما استقرّ الأمر بختام التّنزيل، ووفاة الرسول ﷺ وأُمِنَ النّسخ، ووُجدت دواعي للجمع وفَّقَ الله الخلفاء الراشدين فقاموا بهذا الواجب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

تتخلص الحكمة الباعثة على كتابة القرآن فيما يأتي:

١. تبليغ الوحي على الوجه الأكمل مع تبليغ الشّاهد الغائب.

٢. تبليغ الصّحابة مَن بعدهم عن طريقٍ لا يُذهبه النّسيان ولا يضيع بالموت.

٣. معاضدة المكتوب للمحفوظ.

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢٨/١).

(٢) رواه الترمذي (٣٩٥٤).

ميزات الكتابة في عهد الرّسول ﷺ:

١. لم يكن مكتوباً في مصحفٍ واحدٍ، ولكنْ كان مكتوباً في صُحفٍ أو رقاعٍ أو عظامٍ أو لخافٍ.

٢. لم يكن مرتّب السّور والآيات كتابةً.

٣. كان فيما كُتِبَ منسوخُ التّلاوة.

جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه:

بعد وفاة النّبيّ ﷺ آلت الخلافة إلى أبي بكر رضي الله عنه، وواجهت أبا بكر رضي الله عنه أحداثٌ شدادٌ منها موقعة اليمامة سنة اثنتي عشر للهجرة بين المسلمين وأهل الردّة من أتباع مسيلمة الكذّاب، واستحرَّ القتل في قرّاء الصَّحابة والحَفَظَة منهم، وبلغ عددهم السّبعين، منهم: سالم مولى أبي حذيفة، فدخل عمر رضي الله عنه على أبي بكر رضي الله عنه واقترح عليه أنْ يجمعَ القرآن خشية الضّياع بموت الحفّاظ واستشهاد القرّاء، فَتَحَرَّج أبو بكر من فعل شيءٍ لم يكن فعلَه النّبيّ ﷺ لأنّه كان وقّافاً عند حدود ما كان عليه النّبيّ ﷺ، ولكنْ بعدَ مفاوضةٍ بينه وبين عمر رضي الله عنه تجلّى له وجه المصْلحة فاقتنع بصوابِ الفكرة، وشرح الله لها صدرَه، وعَلِمَ أنّ هذا الجمع وسيلةٌ عظيمةٌ لحفظ القرآن، والمحافظة عليه من الضّياع والتّحريف، وأنّه ليس بدعةً بل هو مستمدٌ من القواعد التي وضعها الرّسول ﷺ حيث شرَّع كتابة القرآن واتَّخذ كُتَّاب الوحي، وَجَمَع ما كتبوه عنده حتى مات ﷺ.

قال المحاسبي في (فهم السنن): "كتابة القرآن ليست بمُحْدَثة فإنّه ﷺ كان يأمر بكتابته ولكنّه كان مفرقاً في الرّقاع والأكتاف والعُسُب ... إلى أنْ قال: "وكان ذلك بمنزلة أوراقٍ وُجدت في بيت الرّسول ﷺ فيها القرآن منتشراً فجَمَعَها جامعٌ وربطها بخيطٍ حتى لا يَضِيع منها شيءٌ"(١).

(١) انظر: الاتقان في علوم القرآن (٢٧٧/١).

فَنَدَبَا لتحقيق هذه المهمّة زيد بن ثابت ﷺ فهو صحابيٌ جليلٌ من حفّاظ القرآن، ومن كُتّاب الوحي، وشهِدَ العَرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياة النّبيّ ﷺ، وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله، وشدّة ورعه، وعِظَم أمانته، وكمال خُلُقه، واستقامةِ دينه.

ولم يكن زيد ﷺ بأقلّ تحرُّجاً من أبي بكر ﷺ بل كان أشدّ، ولم يزل به أبو بكر حتى استبان وجه المصْلحة وشرح الله صدره لِمَا شرح الله له صدر أبي بكر وعمر ﷺ.

وفي ذلك يروي البخاري أنَّ زيد بن ثابت ﷺ قال: "أرسل إليَّ أبوبكر مقتل أهل اليمامة (أي عقب استشهاد القراء السّبعين في واقعة اليمامة) فإذا عمر بن الخطّاب عنده، قال أبو بكرﷺ: إنّ عمر أتاني فقال: "إنّ القتل قد استحرَّ (اشتدّ) يوم اليمامة بقرّاء القرآن وإنّي أخشى أنْ يَسْتحِرَّ القتل بالقرّاء بالمواطن فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإنّي أرى أنْ نأمرَ بجمع القرآن، قلتُ لعمر: كيف نفعل ما لمْ يفعلْه رسول الله ﷺ؟ قال عمر ﷺ: "هذا والله خير"، فلم يزل عمر يُرَاجِعُنِي حتى شَرَحَ الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيدٌ: قال أبو بكر: "إنك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نتّهِمُكَ، وقدْ كنتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتَتَبّع القرآن فاجمعْهُ. فواللهِ لو كلّفوني نَقْل جبلٍ من الجبال ما كان أثقل عليَّ ممّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جمعِ القرآن، قلتُ: "كيف تفعلون شيئاً لم يفعلْه رسول الله ﷺ؟ قال: "هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يُرَاجِعُنِي حتّى شَرَحَ الله صدري للّذي شَرَحَ له صدر أبي بكر وعمر". فتتبّعْتُ القرآن أجمَعُه من العُسب واللّخاف وصدور الرّجال، حتّى وجدتُ آخر سورة التّوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحدٍ غيره: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ حتّى خاتمة براءة، فكانت الصّحف عند أبي بكر حتى توفّاه الله، ثمّ عند عمر حياتَه، ثمّ عند حفصة بنتِ عمرَ"(١).

بدأ زيدٌ بجمع القرآن وانتهجَ طريقةً دقيقةً محكمةً وضعها له أبو بكر وعمر فيها تثبتٌ بالغٌ، وحذرٌ دقيقٌ، وتحرياتٌ شاملةٌ.

(١) رواه البخاري (٤٦٧٩).

١. لم يكتفِ بما حفظ في قلبه، ولا بما كتبَ في يده، ولا بما سمعَ بأُذنه، بل رجع إلى ما كُتب بين يدي الرّسول ﷺ، وكان محفوظاً في صدور الرّجال.

٢. ولا يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنَّه كُتب بين يدي رسول الله ﷺ.

ويدلّ عليه ما أخرجه ابن أبي داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه: "أنّ أبا بكر قال لعمرَ ولزيدٍ: اقعدَا على باب المسجد فمَن جاءكما بشاهدين على شيءٍ من كتاب الله فاكتُبَاه"، وهو حديث رجاله ثقات وإنْ كان منقطعاً[١].

قال ابن حجر: "والمراد بالشّاهدين: الحفظ والكتابة"[٢].

وذَكَرَ السّخاوي في جمال القرّاء ما يفيد أنّ المراد بهما رجلان عدلان إذ يقول ما نصّه: "المراد أنّهما يشهدان على أنَّ ذلك المكتوب كُتِب بين يدي رسول الله ﷺ"[٣].

ولم يعتمد زيد على الحفظ وحدَه، ولذلك قال في حديث البخاري: "إنَّه لم يجد آخر سورة التوبة إلا مع أبي خزيمة"، أي لم يجدها مكتوبةً إلا مع أبي خزيمة الأنصاري، مع أن زيداً كان يحفظها، وكان كثيرٌ من الصّحابة يحفظونها، ولكنّه أراد أنْ يجمع بين الحفظ والكتابة زيادةً في التوثّق، ومبالغةً في الاحتياط.

قال عليٌّ رضي الله عنه: "أعظم النّاس في المصاحف أجراً أبو بكر رضي الله عنه، رحمة الله على أبي بكر هو أوّل مَن جمع كتاب الله"[٤].

---

(١) رواه ابن أبي داود في المصاحف (١٨).

(٢) فتح الباري (١٤/٩).

(٣) جمال القرّاء (٥٧٣/٢).

(٤) رواه ابن أبي داود في المصاحف (١٠).

وقد قُوبلت هذا الصّحف بعنايةٍ فائقةٍ، فَحَفِظَها أبو بكر عنده، ثمّ حَفِظَها عمر بعدَه، ثمّ حَفِظَتْها حفصةُ ﵂ بعد وفاة عمر، حتّى طلبها الخليفة عثمان حيث اعتمدَ عليها في استنساخ مصاحف القرآن ثمّ ردّها إليها.

ميّزات هذه الصّحف:

١. جَمَعت القرآن على أدَقِّ وجوه البحث والتحري، وأسلم أصول التثبت العلمي.

٢. اقتُصِرَ فيها على ما لم تُنْسَخ تلاوته.

٣. ظفرت بإجماع الأمّة عليها وتواتر ما فيها.

٤. اعتُمِدَ فيها على الحفظ والكتابة، والحفظ هو المعوّل عليه، والاعتماد على الكتابة زيادةٌ في الاحتياط.

٥. كانت شاملةً للأحرف السّبعة التي نزل بها القرآن الكريم.

جمع القرآن في عهد عثمان ﵁:

اتّسعت الفتوحات في زمن عثمان ﵁، واسْتَبْحَرَ العمران، وكان أهل كُلِّ إقليم يأخذون بقراءة مَن اشتهر بينهم من الصّحابة، فأهل الشّام يقرؤون بقراءة أُبيّ بن كعب، وأهل الكوفة بقراءة ابن مسعود، وغيرهم بقراءة أبي موسى الأشعري، فكان بينهم اختلافٌ في حروف الأداء ووجوه القراءة بطريقةٍ فَتَحت باب الخلاف في قراءة القرآن أشْبَه بما كان بين الصّحابة في حياة النّبيّ ﷺ قبل أنْ يعلَموا أنّ القرآن نَزَلَ على سبعة أحرفٍ، بل كان هذا الشقاق أشدّ بعد النّبيّ ﷺ.

أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قِلابة أنّه قال: لما كانت خلافة عثمان جَعَلَ المعلّمُ يعلّم قراءة الرّجل، والمعلّمُ يعلّم قراءة الرّجل، فجعل الغلمان يلتَقُّون فيختَلِفون

حتّى ارتَفَعَ ذلك إلى المعلِّمين، حتّى كَفّرَ بعضهم بعضاً، فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال: "أنتم عندي تختلفون فمَن نأى عنّي من الأمصار أشدّ اختلافاً"(١).

وَصَدَق عثمان فقد كانت الأمصار أشدّ اختلافاً، ولم تكن الأحرف السّبعة معروفةً لأهل الأمصار، ولهذا رأى عثمان بثاقب رأيه وصادق نظره أنْ يتدارك الخرقَ قبل أنْ يتّسع على الرّاقع، وأنْ يستأصل الدّاء قبل أنْ يعزَّ الدّواء، فجمع أعلام الصّحابة وذوي الرأي فيهم، وتدارس معهم العلاج، فأجمعوا على استنساخ مصاحف يُرسَل منها إلى الأمصار، وأنْ يُحْرَقَ كلُّ ما سواها، وتُعتبر هذه المصاحف الرسمية نورَهم الهادي عند الاختلاف.

تنفيذ عثمان ﷺ ما أجمع عليه الصّحابة:

أواخر سنة أربعة وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة عَهد عثمان ﷺ في نسخ المصاحف إلى أربعةٍ من خِيرة الصّحابة وثقات الحفاظ وهم: (زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزّبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام)، وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قريش.

وأرسل عثمان إلى أمّ المؤمنين حفصة بنت عمر فبعثت إليه بالصّحف التي عندها وهي التي جُمع القرآن فيها على عهد أبي بكر ﷺ.

وأخذت هذه اللجنة في نسخِهَا، وجاء في بعض الروايات أنّ الذين نُدِبُوا لِنَسْخِ المصاحف كانوا اثني عشر رجلاً.

الخطة التي رسمها عثمان لكتابة المصاحف.

١. ما كانوا يكتبون شيئاً إلا بعد أن يُعرض على الصّحابة ويُقرّوا أنّ رسول الله ﷺ قَرَأ على هذا النّحو.

(١) رواه ابن أبي داود في المصاحف (٦١).

٢. ولم يكتبوا إلا ما تحقّقوا أنّه قرآن، وعَلِمُوا أنّه اسْتَقَرّ في العَرضة الأخيرة.

٣. ولم يكتبوا إلا ما أيقنوا صحته عن النّبيّ ﷺ، ولم تُنسخ تلاوتُه.

٤. وأنْ يكون ما كتبوه موافقاً لما يحفظونه في الصّدور مرتباً بترتيبه.

وقد تمّ ذلك بحمد الله وأَمَرَ عثمان أنْ يُحْرَقَ كلُّ ما عداها.

روى البخاري عن أنس ﷺ وقد كان حذيفة بن اليمان ﷺ يُغازي أهل الشّام في أرمينية وأذربيجان وكان قد أفزعه اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان ﷺ: "يا أمير المؤمنين، أَدْرِكْ هذه الأمّة قبل أنْ يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنّصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أنْ أرسلي إلينا بالصّحف ننْسخُها ثمّ نردّها إليك، فأرسلتْه حفصة، وهنا أَمَرَ عثمان زيدَ بن ثابت وعبد الله بن الزّبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال لهم: "إن اختلفتم في شيءٍ من القرآن فاكتبوه بلسان قريشٍ فإنّما نزل بلسانهم"، ففعلوا، ولما انتهوا ردَّ عثمان الصّحف، ثمّ أرسل إلى كُلِّ قُطرٍ مصحفاً مرتب الآيات والسّور مكتوباً بلغة قريش"[1]، وذلك كلّه بعد استشارته ﷺ للصّحابة رضوان الله عنهم، وكان هذا الأمر على ملأٍ منهم، يقول علي ﷺ: "لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلتُه أنا".

مميزات هذا الجمع في عهد عثمان ﷺ.

١. الاقتصار على ما ثبت بالتواتر (وهو ما في صحف أبي بكر)، وإهمال مَا نُسِخَت تلاوته، ولم يستقرّ في العَرضة الأخيرة.

٢. تجريد المصاحف من كلَّ ما ليس قرآناً كالذي يكتبه بعض الصّحابة في مصاحفهم شرحاً لمعنى أو بياناً لناسخٍ ومنسوخٍ أو نحو ذلك، وقد استجاب الصّحابة لعثمان فَحَرَقُوا مصاحفهم. (منها مصحف ابن مسعود، ومصحف أُبيّ بن كعب، ومصحف

(١) رواه البخاري (٤٩٨٨).

عائشة، ومصحف عليٍّ، ومصحف سالم مولى أبي حذيفة) وأجمعوا على المصاحف العثمانية.

٣. ترتيب السّور والآيات على الوجه المعروف الآن.

٤. كتابتها بطريقةٍ كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن، ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسْم الواحد.

روى أبو بكر الأنباري عن سُويد بن غَفَلَة قال: سمعت علي بن أبي طالب ﷺ يقول: "يا معشر النّاس، اتّقوا الله وإيّاكم والغلو في عثمان وقولكم: حرَّاق مصاحف، فوالله ما حَرَقَها إلا عن ملأٍ منّا أصحاب رسول الله ﷺ"(١).

وعن عمر بن سعيد قال: "قال عليٌّ ﷺ: لو كنتُ الوالي وقت عثمان لفعلتُ مثلَ الذي فعل عثمان"(٢).

والخلاصة: إنّ عثمان ﷺ أَرْضَى رَبَّهُ، وجمع الكلمة على القرآن، وأغلق باب الفتنة، وكفاه شرفاً أن يُقال: عثمان جامع القرآن.

وأخيراً

نستطيع أن نفرّق بين مرّات جمع القرآن في عهوده الثّلاثة:

فالجمع في عهد النّبيّ ﷺ كان عبارةً عن كتابة الآيات وترتيبها في سورها، لكن مع بعثرةِ الكتابة وتفرقها بين عُسبٍ وعظامٍ وحجارةٍ ورقاعٍ حسبما تيسّر، والغَرَضُ منه ضبط القرآن في الكتابة زيادةً على ضبطه في الصّدور.

(١) رواه ابن أبي داود في المصاحف (٦٢).

(٢) رواه ابن أبي داود في المصاحف (٦٣).

والجمع في عهد أبي بكر ﷺ جمع المكتوب حسبما هو محفوظ الصّدور، مقتصراً فيه على ما لم تُنسخ تلاوته، وعلى ما استقرّ في العَرضة الأخيرة.

والجمع في عهد عثمان ﷺ نَقل ما في تلك الصّحف إلى مصحفٍ واحدٍ إمامٍ، واستنساخ مصاحفَ تُرسَل إلى الأمصار، والمصحف الآن مطابقٌ لما عليه مصحف عثمان الإمام، ومطابقٌ لما في صحف أبي بكر، ولما كان محفوظاً في الصّدور، وُفق ما استقرَّ في العَرضة الأخيرة على جبريل عليه الصّلاة والسّلام، ولما كان يحفظه الرّسول ﷺ.

الرد على ما يُثار حول جمع القرآن من شُبهٍ

١ – **يقولون**: لقد جاء في الحديث عن عائشة ﵂ أنّ النّبيّ ﷺ سمِع رجلاً يقرأ في المسجد فقال: "يرحمه الله، لقد أذْكَرني كذا وكذا آية، أَسْقَطْتُهُن من سورةِ كذا وكذا"(١). فإنّ قراءة ذلك الرّجل ذكَّرت النّبيّ ﷺ آيةً أو آياتٍ أسْقطها سهواً، وهذا يُزَعْزِعُ الثّقة بالرّسول ﷺ، ويشكِكُ في دقّة جمعِ القرآن ونسخه.

والجواب: غاية ما في الأمر أنّ الآيات غابت عنه، وتذَكَّرَهَا بقراءة الرّجل، ومثل هذا جائزٌ في حقّه ﷺ، وإنّما المستحيل النّسيان التّام الذي يُخِلُّ بالرّسالة والتبليغ.

قال الجمهور: جاز النّسيان عليه ﷺ فيما ليس طريقه البلاغ والتعليم بشرط ألّا يُقرَّ عليه، بل لا بدَّ أنْ يذكره، وأمّا نسيان ما بلّغه كما في الحديث فهو جائزٌ بلا خلاف.

٢ – **يقولون**: قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى] يدلّ على أنّ النّبيّ ﷺ أسْقط عمداً أو نَسِيَ آياتٍ.

والجواب: إنّ هذا وعدٌ من الله بأنّ النّبيّ ﷺ لنْ ينسى، والاستثناء (إلا ما شاء الله) المقصود منه ما نُسِخت تلاوته لحكمةٍ من الحِكَم، وليس يُفهم من الآية ولا الاستثناء أنّ النّبيّ ﷺ نَسِيَ حرفاً مما أُمر بتلاوته وتبليغه للخلق.

٣ – **يقولون**: الصّحابة حذفُوا من القرآن آيةَ المتعةِ ومدح عليٍّ ﵁.

والجواب: لم يثبت أنَّ المتعة لها آية، ولم يثبت أبداً أمثال: (وجعلنا علياً صِهْرَك)، والمتعة حِلُّهَا ونسخُها كلّه بالسّنّة النّبوية، ولقد رَوَى عليٌّ ﵁ تحريم المتعة إلى يوم

(١) رواه البخاري (٥٠٣٧).

القيامة على لسان رسول الله ﷺ، عن عليّ بن أبي طالب ﷺ: "أنّ رسول الله ﷺ نهى عن متعَة النّساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمُر الانسية"(١).

٤ – **يقولون**: إن الحَجَّاج قد أسقط الآيات في ذمّ بني أمية.

والجواب: هذا محضُ دسٍّ وكَذِبٍ رخيص.

٥ – **يقولون**: إنّ ابن مسعود ﷺ أنكر أنّ المعوذتين من القرآن، وأنّ ما في القرآن من كلام أبي بكر وعمر ﷺ.

والجواب: لم يصح عن ابن مسعود هذا النّقل، والمسلمون أجمعوا على أنّ المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأنّ مَن جَحَدَ شيئاً منها كَفَرَ، وما نُقل عن ابن مسعود باطلٌ ليس بصحيحٍ. وقد صحَّ عن ابن مسعود قراءة عاصم وفيها الفاتحة والمعوذتان.

وأخرج الإمام أحمد حديث: "إذا أنتَ صلَّيتَ فاقرأ بهما"(٢)، وعلى فرض صحته كان قبل عِلْمِهِ بهما فلمّا عَلِمَ رجع، وتَمَّ التّواتر، أو أنّ ابنَ مسعود لم يسمَعْهُمَا من النّبيّ ﷺ فتوقّف في أمرهما حتى ثبتَ له، وتمّ الإجماع، كيف والفاتحة لا تصحّ الصّلاة إلا بها، هذا وقد ثبت تأييد ابن مسعود لعمل أبي بكر وعمل عثمان وحَرَق مصحفَه.

وأمّا قولهم: أنّ آية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] من كلام أبي بكر فهو باطلٌ، فقد جاءت الروايات الصّحيحة أنّها نزلت في غزوة أُحُدٍ، واستشهد بها أبو بكر حيث قال بعد وفاة النّبيّ ﷺ بعد أنْ حَمِدَ الله وأثْنى عليه: "مَن كان يعبدُ محمّداً فإنّ محمّداً قدْ مات، ومَن كان يعبد الله فإنّ الله حَيٌّ لا يموت، ثمّ تلا هذه الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾"، قال الراوي: فوَالله لكأنّ النّاس لم يعلموا أنّ هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذٍ، فأَخَذَهَا النّاس من أبي بكر، وقال عمر:

(١) رواه البخاري (٤٢١٦).

(٢) رواه أحمد في المسند (١٩٤٠٢).

ما هو إلا أنْ سمعت أبا بكر تلاها حتى وقعتُ على الأرض ما تحملني رجلايَ وعرفتُ أنّ رسول الله ﷺ قد مات"(١).

وأمّا قولهم إنّ آية: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] من كلام عمر ﷺ فهو ظاهر البطلانِ، لأنّ الثابتَ أنّ عمرَ قال للنّبيّ ﷺ: "لو اتّخذنا من مقام إبراهيم مصلًّى فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾(٢). وهذا من موافقات عمرَ لربّه عزّ وجلّ.

٦ – **يَزعم** بعضُ غلاة الفرق الضَّالة أنّ عثمان ومن قبلِه أبو بكر وعمر أيضاً حرَّقوا المصاحف، وأسقطوا كثيراً من آياته وسوره، والقرآن سبعة عشر ألف آية، والآن ستة آلاف ومائتا آية، وسورة كان فيها اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم وأنّ لفظ: ﴿أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾ [النحل: ٩٢] ليست من كلام الله، وحقيقة المنزَل: (أَئمّةَ أزكى من أئمتكم)، وكانت هناك سورة الولاية، وأنها أُسقطت بتمامها، وأنَّ أصلَ: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التّوبة: ٤٠] (ويلك لا تحزن إنّ الله معنا)، وأنهم أسقطوا بعد: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ لفظ: (عن ولاية علي)، وأسقطوا لفظ بعليٍّ من بعد: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥]، وآل محمّدٍ من بعد: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، كبُرت كلماتٍ تخرج من أفواههم إنْ يقولون إلا كذباً، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

والجواب: هذه اتّهاماتٌ تدلّ على قائليها، وهي لا تستند إلى سندٍ ولا دليلٍ ولا تستحق الإجابة عليها، ويكفي في بطلانها أنّهم لا يقيمون عليها برهاناً، بل إنّهم يتبرؤون منها عند المواجهة.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٠٢).

وأيضاً التّواتر قد قام والإجماع قد انعقد على أنّ الموجود بين دفتي المصحف كتاب الله لا زيادة ولا نقصان ولا تغيير ولا تبديل، وعليٌّ ﷺ من أوّل المجمِعِين، وكلماتُهُ في هذا الأمر مشهورةٌ.

والخلافة إلى علي ﷺ قد انتهت، وهو من أشجع خلق الله في نصرة الدّين والإسلام، وصار الأمر بعده لسيدنا الحسن ﷺ فماذا منع عليًّا وابنه الحسن ﷺ من الجهر بالحقِّ، وبيان هذا، وهو من أوجب الواجبات لو كان، وأخيراً إنّ هذه شبهٌ من أقاويل المجانين، ولا يصدِّقها إلا أعمى البصيرة.

٧ – **يقولون**: إنّ ابن مسعود ﷺ قال "يا معشر المسلمين أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولّاه رجلٌ، والله لقد أسلمتُ وإنَّه لفي صُلب رجلٍ كافرٍ"، وقالوا: إنّه يعني بهذا الرّجل زيد بن ثابت ﷺ.

والجواب: إنّ هذا الكلام لم يصحّ عن ابن مسعود، بل لا يصحّ لأنّ ابن مسعود ﷺ لم يُعيَّن في نسخ المصاحف، وإذا كان معناه: "أُتْرَك فلا أُكَلَّف"، فلا يدلّ على طعنٍ إنما يَعترض على عدم تكليفه، ولا يَعترض على أهلية زيد، وكونه أكبر من زيدٍ سناً وأسلمَ وزيدٌ في صلب والدٍ كافرٍ لا يعيب زيداً، وابنُ مسعود ﷺ رجع إلى ما في مصحف عثمان، وحَرَقَ مصحفه في آخر الأمر حين تبيّن له الحقّ، والتّواتر لا يطعن فيه مخالفٌ، ومتى رواه جمعٌ عن جمعٍ يُؤمَنُ تواطؤهم على الكذب فهذا هو الحقّ.

٨ – **يقولون**: إنّ زيداً لم يجد آيتين من آخر سورة التّوبة مع غير خزيمة، وآية من سورة الأحزاب لم يجدها إلا مع خزيمة.

والجواب: إنَّ هذا لا يطعن بالتّواتر، فالآيتان موجودتان في صحف الصّحابة، ومحفوظتان في صدور الحفّاظ منهم، لكن لم يجد صحيفةً كُتبت بين يدي الرّسول ﷺ إلا مع خزيمة، وشهادة خزيمة بشهادة رجلين، وكذلك آية الأحزاب.

٩ – **يقولون**: إنَّ الصّحابة حذفوا من القرآن كلّ ما رأوا المصلحة في حذفه، فمن ذلك: المتعة أسقطها علي بن أبي طالب وكان يَضرب مَن يَقْرؤُها، وهذا مما شنّعت عائشة به عليه فقالت: إنّه يجلِد على القرآن وقد بدّله وحرّفه، وإن أُبيّ بن كعب حذف من القرآن القنوت الذي كان يرويه: "اللّهم إنّا نستعينك ...

والجواب: إنّ هذا أبعد ما يكون عن خُلُق الصّحابة، فقد كانوا أحرص النّاس على الاحتياط للقرآن، وكانوا أيقظ الخلق على حراسة القرآن، وقد رأينا دِقَّتَهُم في جمع القرآن في صحف أبي بكر ﷺ، ودِقَّتَهُم في جمعه في مصحف عثمان ﷺ. ومما يوضّح كذبهم نفس التّهمة فلم تكن هناك آية للمتعة حتى تُحذَف، ولم تكن هناك آية للقنوت حتى تُحذف، فالمتعة أُحَلت بالسّنّة ونُسِخت بالسّنّة، والقنوت ثبت بالسّنّة، ولا يزال معمولاً به في الصّلاة، ولم يكن قرآناً قطّ، وإذا أراد الطّاعنون أَنْ يَلْمِزُوا الصّحابة ويعيبوهم فالله مَدَحَهم، وأثنى عليهم في التّوراة والإنجيل والقرآن، ورضي عنهم، وألزمهم كلمة التقوى، وكانوا أحقّ بها وأهلها.

وكانوا لا يقولون في تفسير القرآن بغير علمٍ، والمعروف من سيرتهم رضوان الله عنهم المواقف الشّديدة في حفظ القرآن، زِدْ على هذا فالله تعالى قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

مكيُّ القرآن ومدنيُّه وخصائِصُهما

عَنِيَ العلماء بتحقيق المكّي والمدني عنايةً فائقةً، فتتبّعوا القرآن الكريم آيةً آيةً، وسورةً سورةً لترتيبها وفق نزولها مراعين في ذلك: الزّمان والمكان والخطاب والموضوع.

وهو تحديدٌ دقيقٌ، إذْ تعيين وقت النّزول، وتحديد مكان النّزول، وأسلوب الخطاب، له شأنه، ومعرفة الموضوع له أثره في تعيين المكّي والمدني أيضاً وقد توصلوا إلى معرفة المكّي والمدني.

فالمكّي (٨٢) سورة، **والمدني** (٢٠) سورة، **والمختلف** (١٢) سورة، ومجموع سور القرآن (١١٤) سورة، ولا يُقصد بوصف السّورة بأنّها مكّيةٌ أو مدنيةٌ أنّها بأجمعِها كذلك، وقد يكون في المكّية بعض آياتٍ مدنيةٍ، وفي المدَنِيَة بعض آياتٍ مكّيةٌ، فهو وصفٌ أغلبيٌ.

ومن أمثلة ذلك: سورة الأنفال مدنيةٌ إلا آية: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠] فإنّها نزلت بمكّة.

وسورة الأنعام مكّية، وفيها ثلاث آياتٍ مدنيةٍ هي: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

واعتمد العلماء في معرفة المكّي والمدني على منهجين: **سماعي، وقياسي**.

المنهج السّماعي: يستند إلى الرّواية الصّحيحة عن الصّحابة الذين عاصروا الوحي، وشاهدوا نزوله، أو عن التابعين الذين تلَقّوا عن الصّحابة وسمعوا منهم. ومعظم ما ورد في المكي والمدني من هذا القبيل.

والمنهج القياسي: يستند إلى خصائص المكّي وخصائص المدني.

فإذا وُجِد في السّورة خصائص المكّي قالوا: إنّها مكّية، وإذا وُجِد في السّورة خصائص المدني قالوا: إنّها مدنيةٌ، ولذا قالوا: كلّ سورةٍ فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكّية. وكلّ سورةٍ فيها فريضةٌ أو حدٌّ فهي مَدَنيةٌ.

الفرق بين المكّي والمدني

للعلماء في تعريف المكّي والمدني ثلاثةُ تعريفات:

الأوّل: المكّي: ما نزل بمكة. والمدني: ما نزل بالمدينة. واعتُرض عليه بأنَّ ما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لم يدخل بالتعريف.

الثّاني: المكّي: ما كان خطاباً لأهل مكة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، واعتُرض عليه بأنّ كثيراً من الآيات والسّور لم تبدأ بأحدِ الخطابين بل من المدني ما بُدِئَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كآية البقرة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]. ومن المكّي ما بدئ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مثل آية الحجّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ﴾ [الحج:٧٧].

الثّالث: اعتبار زَمَن النّزول، فالمكّي: ما نزل قبل الهجرة وإنْ كان بغير مكّة. والمدني: ما نزل بعد الهجرةَ وإنْ كان بغير المدينة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكّة أو عَرَفَةَ فهو مدنيٌّ.

وهذا التّعريف أَوْلَى من التعريفين لحصْره واطّراده.

خصائص المكي والمدني

استقرأ العلماء السّور المكّية والمدنية واستنبطوا ضوابط ومميزاتٍ موضوعيةً لهما.

ضوابط المكّي ومميزاته الموضوعية: فالضّوابط:

١. كلّ سورةٍ فيها سجدة فهي مكّية.

٢. كلّ سورةٍ فيها لفظ: ﴿كَلَّا﴾ فهي مكّية.

٣. كلّ سورةٍ فيها: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهي مكّية، ما عدا آية الحجّ.

٤. كلّ سورةٍ فيها قصص الأنبياء، والأمم الغابرة، فهي مكّية، سوى البقرة.

٥. كلّ سورةٍ فيها قصّة آدم وإبليس فهي مكّية، ماعدا سورة البقرة.

٦. كلّ سورةٍ تُفْتَح بحروف التّهجي: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿الٓرٰ﴾ ﴿حٰمٓ﴾ فهي مكّية، ما عدا البقرة وآل عمران.

المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب للسّور المكيّة:

١. الدّعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده وإثبات الرّسالة، وإثبات البعث والجزاء، وذكر القيامة وأهوالها والنّار وعذابها، والجنّة ونعيمها، ومجادلة المشركين وإقامة الحجّة عليهم.

٢. وضع الأسس العامة للتشريع والأخلاق، وفضح جرائم المشركين في سفك الدّماء ووأد البنات، وأكل أموال اليتامى ظلماً.

٣. ذكر قصص الأنبياء، والأمم الخالية، زجراً لهم وتسلية للنّبيّ ﷺ.

٤. قِصَرُ الآيات، وقوّة الألفاظ، ومتانة التركيب.

ضوابط المدني ومميزاته الموضوعية. فالضوابط:

١. كلّ سورةٍ فيها فريضةٌ أو حدٌّ فهي مدَنيةٌ.

٢. كلّ سورةٍ فيها ذكر المنافقين فهي مدَنيةٌ، سوى العنكبوت.

٣. كلّ سورةٍ فيها مجادَلَة أهل الكتاب فهي مدَنيةٌ.

والمميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب للمدني:

١. بيان العبادات، والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث، وفضيلة الجهاد، والصِلات الاجتماعية، والعلاقات الدّولية في السّلم والحرب، وقواعد الحكم، ومسائل التشريع.

٢. مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنّصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتاب الله، وعنادهم وبغيهم.

٣. الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسيتهم، وبيان خطرهم.

٤. طول الآيات، وأسلوب التّوضيح والتقرير للشّريعة.

ومن القرآن

ما تكرّر نزوله: منه الفاتحة وسورة الإخلاص.

ما نزل مفرقاً: كالضّحى، فإنّه نزل منها إلى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

ما نزل جمعاً: مثل السّور القِصَار، ومثل سورة الأنعام.

نزول القرآن على سبعة أحرفٍ

أدلة نزول القرآن على سبعة أحرفٍ

صحَّ عن رسول الله ﷺ نزول القرآن على سبعة أحرف، ورواه جمعٌ كبيرٌ من الصّحابة أوصلهم الشّيخ محمد عبد العظيم الزّرقاني إلى (٢١)، ما منهم إلا رواه وحكاه.

روى مسلم عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قد أتاه جبريل ﷺ فقال: "إنّ الله يأمرك أنْ تُقْرِأ أُمّتك القرآن على حرفٍ، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإنّ أمتي لا تُطيق ذلك، ثمّ أتاه الثّانية فقال: إنّ الله يأمرك أنْ تُقرأ أمّتك القرآن على حرفين، فقال النّبيّ ﷺ ما قاله في المرة الأولى، ثم جاءه الثّالثة فقال: إنّ الله يأمُرك أنْ تُقْرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرفٍ، فقال النّبيّ ﷺ مثل ما قال أوّلاً، ثمّ جاءه الرّابعة فقال: إنّ الله يأمرك أنْ تُقرأ أمّتك القرآن على سبعةٍ، فأيّما حرفٍ قرأوا عليه فقد أصابوا"(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أَقْرَأَنِيها فكدت أنْ أعْجَل عليه ثمّ أمهلتُه حتّى انصرف، ثمّ لبّبْتُه بردائِه أو بردائي فجئتُ به رسول الله ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله، إنّي سمعتُ هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأْتنيها، فقال رسول الله ﷺ: "أرْسِلْه، اقْرأ"، فقرأ القراءة التي سمعتُه يقرؤها، فقال رسول الله ﷺ: "هكذا أُنزِلَت"، ثمّ قال لي: "اقرأ"، فقرأتُ، فقال: "هكذا أُنزِلَت، إنّ هذا القرآن أُنزل على سبعةِ أحرفٍ، فاقرؤُوا ما تيسّر منه"(٢).

---

(١) رواه مسلم (٨٢١).

(٢) رواه البخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨).

وتعطي هذه النقول ما يأتي:

١- الاقتصار على حرفٍ واحدٍ فيه حرجٌ ومشقةٌ في تلاوة القرآن وتفهّمه، وليس أدلّ على ذلك من قول النّبيّ ﷺ ثلاث مرات: "نسأل الله معافاته ومغفرته"، وبالتّالي يكون نزوله على سبعة أحرفٍ فيه تسهيلُ قراءته وتفهّمه.

٢- تخيير الأئمة في القراءة بأيّ حرفٍ مما سمع عن النّبيّ ﷺ.

عن أُبيّ بن كعبٍ ﷺ أيضاً قال: "لِقيَ رسول الله ﷺ جبريل، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: "إنّي بُعثتُ إلى أمَّةٍ أميّين، منهم العجوز، والشّيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرّجل الذي لم يقرأ كتاباً قطّ"، قال: "يا محمد، إنّ القرآن أُنزل على سبعة أحرفٍ"(١).

معنى نزول القرآن على سبعة أحرف

من الواضح أنّ عدد السّبعة مرادٌ، لما وَرَدَ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: "إنّ جبريل وميكائيل أَتَيَاني، فقعد جبريل عن يميني، وميكائيل عن يساري، فقال جبريل: "اقْرأ القرآن على حرفٍ، فقال ميكائيل: استزدْه حتى بلغَ سبعة أحرفٍ"(٢).

قال الشّيخ عبد العظيم الزرقاني: "وأنسب المعاني بالمقام أنّ الحرف هو الوجه"(٣).

الوجوه السّبعة

ذهب أبو الفضل الرّازي في اللّوائح إلى أنّ الكلام لا يخرج عن سبعة أحرفٍ في الاختلاف:

١. اختلاف الأسماء من إفرادٍ وتثنيةٍ وجمعٍ وتذكيرٍ وتأنيثٍ، مثاله: (لأمانتهم) أو (لأماناتِهم) في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٤٤).

(٢) رواه النّسائي (٩٤١).

(٣) مناهل العرفان (١/١١٥).

٢. اختلاف وجوه الإعراب: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة:٢٨٢].

٣. اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ ومضارعٍ وأمرٍ، ﴿ربَّنا باعِد﴾، (ربُّنا بَعَّدَ) [سبأ: ١٩].

٤. الاختلاف بالتّقديم والتّأخير: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾، وجاءت سكرة الحقِّ بالموت [ق:١٩].

٥. الاختلاف بالإبدال: ﴿نُنشِزُهَا﴾، (ننشرها) [البقرة: ٢٥٩].

٦. اختلاف اللّغات (اللّهجات) كالفتح، والإمالة، والتّرقيق، والتّفخيم، والإظهار، والإدغام.

وهذا المذهب اختاره الإمام ابن قتيبة، والمحقّق ابن الجزري، والقاضي ابن الطّيب، واختاره الشّيخ الخضري، والدّمياطي، والعلامة الشّيخ بخيت المطيعي رحمه الله.

وإنّي أنقل كلام ابن الجزري: "قد تتبّعتُ صحيح القرءات وشاذّها وضعيفها ومنكرها فإذا هي يَرجع اختلافها إلى سبعة أحرفٍ لا يخرج عنها:

١- وذلك إمّا في الحركات بلا تغييرٍ في المعنى والصّورة، نحو: (البُخل) بأربعة أوجه، و(يحسِب) بوجهين.

٢- أو بتغييرٍ في المعنى فقط، نحو: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة:٣٧] برفع لفظ (آدم) ونصب كلمات، وبالعكس.

٣- وإمّا في الحروف بتغيير المعنى لا الصّورة، نحو (تَبْلُو) و(تَتْلُو).

٤- وعكس ذلك، نحو (بصْطة – بسطة)، ونحو (الصّراط – السّراط).

٥- أو بتغييرهما، نحو (فامضوا – فاسعَوْا).

٦- وإمّا في التّقديم والتّأخير، نحو (فيَقْتُلون ويُقْتَلون).

٧- أو في الزّيادة والنّقصان، نحو (أوصَى ووصَّى).

فهذه سبعة أوجهٍ لا يخرج الاختلاف عنها"(١).

هل هذه الوجوه السّبعة موجودةٌ في المصاحف العثمانية؟

قال الشّيخ عبد العظيم الزرقاني: "والتّحقيق أنّ القول باشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السّبعة كلّها أو بعضها يتوقّف على أمرين:

أحدهما: تحديد المراد من الأحرف السّبعة.

ثانيهما: الرجوع إلى ما هو مكتوبٌ وماثلٌ بتلك المصاحف.

وإذا كان القول المختار ما ذهب إليه الفضل الرّازي بأنّ المرادَ منها الأوجه التي يرجع إليها كلّ اختلاف في القراءات، سواء منها ما كان صحيحاً، أو شاذّاً أو منكراً، وأنّها تنحصر في سبعةٍ، وإذا رجعنا إلى المصاحف وما هو مخطوط نخرج بهذه الحقيقة التي لا تقبل النقض: أنّ المصاحف لم تخل في مجموعها من هذه الأحرف السّبعة على معنى أنّ كل واحدٍ من هذه المصاحف اشتمل على ما يُوافق رسمه من هذه الأحرف، كلاً أو بعضاً بحيث لم تخل المصاحف في مجموعها عن حرفٍ منها رأساً.

ففي الوجه الأول: نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ فالرسم لأمنتهم محتملٌ لهما.

وفي الوجه الثّاني: وهو اختلاف تصريف الأفعال نحو: ﴿يَعۡكُفُونَ﴾ فيها بكسر الكاف وضمها محتملٌ لهما.

وفي الوجه الثّالث: نحو: ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ بفتح الراء وضمها، وهما قراءتان سَبعيتان والرسم يَحتَمِلُهُمَا.

(١) النّشر في القراءات العشر (٢٦/١).

وفي الوجه الرّابع: وهو الاختلاف بالنّقص والزّيادة، فمنه ما يوافق الرسم مثل: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ و﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ومن هذا الوجه لا يوافق الرسم بحال ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ زيادة: (صالحةٍ) بعد (سفينةٍ)، فهذه نُسخت في العَرضة الأخيرة على جبريل، ويدلّ على ذلك إجماع الأمّة على ما في المصاحف.

وفي الوجه الخامس: وهو التّقديم والتّأخير فمنه ما يُوافق الرسم مثل: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ ﴿فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ﴾، ومنه ما خالف الرسم: (وجاءت سكرت الحقّ بالموت) فهي منسوخة بالعَرضة الأخيرة.

وفي الوجه السّادس: وهو الاختلاف بالإبدال فمنه ما يوافق الرسم مثل: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، وفي قراءة: (فتثبتوا)، ومنه ما خالف الرسم: ﴿وَٱمْضُواْ﴾، ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾، وهذا منسوخٌ بالعْرضة الأخيرة.

وفي الوجه السّابع: وهو اختلاف اللّهجات، فيوافق رسم المصحف موافقةً تامّةً، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ فإنها رسمت هكذا بياء في الفعل بعد التاء، وبقلب ألف موسى ياء، ومن غير شَكْلٍ ولا إعجامٍ.

والخلاصة فإنّ جماهير العلماء من السّلف والخلف وأئمة المسلمين ذهبوا إلى أنّ المصاحف العثمانية مشتملةٌ على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبّعة فقط، جامعةٌ للعَرضة الأخيرة التي عرضها النّبيّ ﷺ على جبريل متضمنة لها"(١).

وليس المراد بالأحرف السّبعة القراءات السّبعة، فقد قال المحقّق ابن الجزري:

"فلو كان الحديث منصرفاً إلى قراءات السّبعة المشهورين أو سبعةٍ غيرهم من القراء الذين وُلدوا بعد التّابعين لأدّى ذلك إلى أنْ يكون الخبر عارياً عن الفائدة إلى أنْ يُولَد هؤلاء السّبعة فتُؤخَذُ عنهم القراءة، وأدّى أيضاً إلى أنّه لا يجوز لأحدٍ من الصّحابة أنْ يقرأ إلا بما يعلم أنّ

(١) مناهل العرفان (١/١١٨).

هؤلاء السّبعة من القراء إذا وُلدوا وتعلّموا اختاروا القراءة به، وهذا باطلٌ إذْ طريق أخذ القراءة أنْ تُؤْخَذ عن إمامٍ ثقةٍ لفظاً عن لفظٍ إماماً عن إمامٍ إلى أنْ يتّصل بالنّبيّ ﷺ"(١).

مناقشة الشّبهات المثارة حول الأحرف السّبعة

أعداء الإسلام في كثرةٍ ونشاطٍ ويقظةٍ، وبينَ المسلمين جهلةٌ يُؤذون الإسلام والأُمّة بأشدَّ مما يؤذيه أعداؤه.

وقد نرى ونسمع شبهاتٍ فمن واجب الأمانة أنْ نردّ عليها، والله يقول الحقّ وهو يهدي السّبيل.

الشّبهة الأولى:

يقولون: إنَّ أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف تثبت الاختلاف في القرآن، والقرآن نفسه يرفع الاختلاف: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]. وذلك تناقض.

الجواب: الاختلاف الذي تُثْبِتُه الأحاديث غير الاختلاف الذي ينفيه القرآن. فالأحاديث تثبت الاختلاف بمعنى التنويع في طرق أداء القرآن والنّطق بألفاظه في دائرةٍ محدودةٍ لا تعدو سبعة أحرفٍ، وبشرط التّلقي فيها كلّها عن النّبيّ ﷺ، وأمّا القرآن فينفي الاختلاف بمعنى التّناقض بين معاني القراءات وفنون الأداء.

الشّبهة الثّانية:

يقولون: إنَّ الاختلاف في القراءات يوقع في شكٍّ في ألفاظ القرآن، خصوصاً إذا لاحظنا في بعض الروايات في تخيير الشّخص أنْ يأتيَ من عنده باللّفظ وما يرادفه، كحديث أبي بكرةَ رضي الله عنه وفيه: "كلّها شافٍ كافٍ ما لم تُختم آيةُ عذابٍ برحمةٍ، أو آية رحمةٍ بعذابٍ"(٢). وكحديث

(١) النّشر في القراءات العشر (٤٦/١).

(٢) رواه أحمد (١٩٥٢٩).

أبي عُبيد عن ابن مسعود ﷺ أنّه أَقْرَأَ رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾، فقال الرجل: طعام اليتيم فردّها عليه، فلم يَسْتَقيمْ بها لسانه، فقال: أتستطيع أنْ تقول: (طعام الفاجر)؟ قال: نعم قال: فافعل"(١).

الجواب: إنّ اختلاف القراءات لا يوقع في شكٍّ ما دام الكلّ نازلاً من عند الله، ولا يُفهم من الروايات التي اعتمدت عليها الشّبهة تخيير الشّخص أنْ يأتيَ بلفظٍ من عنده أو مرادفه بل قُصارى ما تدلّ عليه أنَّ الله وسَّع على عباده في مبدأ عهدهم بالوحي أنْ يقرءوا القرآن بما تلينُ به ألسنتهم، ومن جملة ذلك: التوسِعَة بقراءة مترادفاتٍ من اللّفظ الواحد للمعنى الواحد، مع ملاحظة أنّ الجميع نازلٌ من عند الله نزل به الروح الأمين على قلب محمّدٍ ﷺ، وقرأه الرّسول ﷺ على النّاس على مُكثٍ، ثمّ نسخ الله ما شاء أنْ ينسخَ، وأبقى ما أبقى لحكمة.

وما نُسب لابن مسعود ﷺ فالرواية تدل على أنَّه سمع الروايتين عن رسول الله ﷺ، ولما تعسّر النطق على الرجل بالرواية الأولى أشار عليه أنْ يقرأ بالثّانية، وكلاهما منزَّلٌ من عند الله، ويدلّ عليه ما ذكر صاحب البرهان أنَّ النّبيّ ﷺ علَّم البراء بن عازب دعاءً فيه هذه الكلمة: "ونبيك الذي أرسلت"(٢) فلما أراد البراء أن يَعْرِضَ ذلك الدعاء على رسول الله ﷺ قال: "ورسولك الذي أرسلت"، فلم يوافقه النّبيّ ﷺ بل قال له: "لا ونبيك الذي أرسلت"، والله يقول مخبراً عن نبيه ﷺ: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾ [يونس:١٥]. ولا تبديل أكثر من وضع كلمةٍ مكان أخرى.

الشّبهة الثالثة:

يقولون: إنَّ نزول القرآن على سبعة أحرفٍ ينافي ما هو مقرر من أنّ القرآن نزل بلغة قريش وحدها، ثم إنّه يؤدّي إلى ضياع الوحدة بالاجتماع على لسانٍ واحدٍ.

---

(١) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٢٩٢/٨).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤).

والجواب: إنّه لا منافاة، فإنّ الوجوه السّبعة التي نزل بها القرآن الكريم واقِعَةٌ كلّها في لغة قريش، لأنّ قريشاً قبل مهبط الوحي والتنزيل تداولت لغات العرب، أخذت ما استحلّته في أسواق العرب ومواسمها وحجّها وعمرتها فَلُغَتُها أصبحت مجمع لغاتٍ مختارة، وهذا من أسباب انتهاء الزعامة إليها، ومن هنا شاءت حكمة الحكيم العليم أنْ يُنزِل القرآن بلغة قريشٍ، ولو نَزَلَ القرآن بغير لغة قريشٍ لكان مثار مُشاحنات وعَصبيات وما اجتمع عليه العرب، والله أعلم.

الشّبهة الرّابعة:

يقولون: لا معنى للأحرف السّبعة إلا القراءات السّبع.

والجواب:

١. إنّ الأحرف السّبعة التي نزل بها القرآن أعمّ من تلك القراءات السّبعة، وتنتظم معها الثلاثة إلى العشرة، وما بعد العشرة، وما كان قرآنا ثمّ نُسخ ولم يصل إلى هؤلاء القراء، ولهذا نصُّوا في المذهب المختار على أنّه يشمل وجوه القراءات كلّها صحيحها وشاذّها ومنكرها.

٢. أنّ السّبعة (وتمام العشرة) لم يكونوا قد خُلِقُوا ولا وُجدوا، والقراء السّبعة أخذوا عن النّبيّ ﷺ من طريق أصحابه، ومَن أخذ عنهم إلى أنْ وصلوا إليهم، وتستلزم هذه الشّبهة أن يبقى الحديث عارياً عن الفائدة حتى يُولد القراء السّبعة، ولا يجوز لأحدٍ من الصّحابة أنْ يقرأ إلا بما يعلم أنّ هؤلاء السّبعة سيختارون القراءة به، وهذا باطلٌ كما ذكر المحقّق ابن الجزري، إذ طريق أخذ القراءة أن تُؤْخَذَ عن إمام ثقة لفظاً عن لفظ، إماماً عن إمام، إلى أنْ يتصل بالنّبيّ ﷺ.

نشأة علم التفسير وبيان مناهج العلماء فيه

مع دراسة نماذج لبعض المصنّفات على المناهج المعدَّدَة

التّفسير لغةً: الإيضاح والتبيين، **واصطلاحاً**: علمٌ يُبحث فيه عن القرآن الكريم، من حيث دلالتُه على مراد الله تعالى، بقدر الطّاقة البشرية. فخرج علم القراءات، وعلم الرسم، وعلم الكلام.

والتّفسير نوعان إجمالاً

١- تفسيرٌ لا يتجاوز حلّ الألفاظ، وإعراب الجمل، وبيان ما يحتويه نظم القرآن من نُكاتٍ بلاغية وإشاراتٍ فنّيةٍ.

٢- تفسيرٌ يجعل هدفه الأعلى تجليةُ هدايات القرآن وتعاليمه، وحكمة الله فيما شرع للنّاس في هذا القرآن، على وجهٍ يجذِبُ القلوبَ، ويدفع النّاس إلى الاهتداء بهدي الله.

فالتّفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذّخائر التي احتواها هذا القرآن الذي أنزله الله لإصْلاح البشر، وإنقاذ النّاس، وإعزاز العالَم.

والمسلمون والعَالَمُ جميعاً في حاجةٍ إلى أنْ يَسْتَلْهِمُوا الرُشد من كتاب الله، ويُحَكِّمونه في أنفسهم وفي كلّ ما يتصل بهم، وقد قال السّيوطي: "القرآن إنّما نزل بلسانٍ عربيٍّ، في زمنِ أفصح العرب، فكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه. أمّا دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنّظر وسؤالهم النّبيّ ﷺ"(١).

(١) الاتقان في علوم القرآن (١/٤٢٦).

مثل قولهم: "وأيّنا لا يظْلم نفسَه"[1] حينما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] ففسّره النّبيّ ﷺ بالشّرك، واستدلّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وكذلك حين قال النّبيّ ﷺ: "مَن نُوقِش الحساب عُذِّب"، حيث سألته عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ [الانشقاق] فقال ﷺ: "ذلك العَرْضُ"[2].

وكقصّة عَدِي بن حاتم في الخيط الأبيض من الخيط الأسود[3].

ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه، بل نحن أشدّ احتياجاً إلى التّفسير لقصورنا عن مدارك اللّغة وأسرارها بغير تعلّمٍ.

وفائدة التّفسير هي التّذكر والاعتبار، ومعرفة هداية الله في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، ليفوز الفرد والمجاميع بخير العاجلة والآجلة.

وعلم التّفسير من أشْرف العلوم لسموّ موضوعه وعظم فائدته.

ومَن أراد تفسير القرآن طلبه أولاً من القرآن، فما أُجمل منه في مكانٍ فقد فُسّر في موضعٍ آخرَ، وما اختُصر في مكانٍ فقد بُسِطَ في موضعٍ آخرَ منه.

فإنْ أعياه ذلك طلَبه من السّنّة، فإنّها شارحةٌ للقرآن موضِحةٌ، فقد قال الشّافعي رحمه الله تعالى: "كلّ ما حكم به رسول الله ﷺ فهو ممّا فهمه من القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ

(١) رواه البخاري (٣٣٦٠).

(٢) رواه البخاري (٤٦٥٥).

(٣) رواه البخاري (٤٢٣٩).

ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، وقال ﷺ: "ألا إنّي أُوتيتُ القرآن ومثلَه معَه"(١) يعني السّنّة(٢).

فإنْ لم يجدْه من السّنّة رجع إلى أقوال الصّحابة فإنّهم أدْرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله، ولما اختصُّوا به من الفهم التّام والعلم الصّحيح والعمل الصّالح.

قال ابن تيمية: "يجب أن يُعلَم أنَّ النّبيّ ﷺ بَيَّنَ لأصحابه معاني القرآن كما بيَّن لهم ألفاظه"، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل:٤٤] يتناول هذا وهذا، وكانوا يتعلّمون القرآن والعلم والعمل جميعاً"(٣).

فإذا لم يجد رجع إلى قول التّابعين، فإنّ غالب أقوالهم تَلَقَّوها عن الصّحابة، وربما يُحكى عنهم عباراتٍ مختلفة الألفاظ فيَظنّ مَنْ لا فَهْمَ عنده أنّ ذلك اختلافٌ محقّقٌ فيحكيه أقوالاً، وليس كذلك بل يكون كلّ واحدٍ منهم ذكرَ معنىً للآية لكونه أظهر عنده، أو أليق بحال السّائل، وقد يكون بعضهم يُخبر عن الشّيء بِلازِمِهِ ونظيره، والآخر بمقصودِه وثمرتِه والكلّ يؤول إلى معنىً واحدٍ غالباً.

وقد اختلف العلماء في الرجوع إلى أقوال التّابعين: فمنعه بعضهم، وعَمَلُ المفسرين على خلافه، وعَن أحمد روايتان.

وقد نقل السّيوطي في الإتقان(٤) عن الزّركشي قولَه: "للنّاظر في القرآن لطَلب التّفسير مآخذُ كثيرةٌ أمّهاتُها أربعةٌ:

الأوّل: النّقل عن النّبيّ ﷺ، وهذا هو الطّراز المعلَّم، لكن يجب الحذر من الضّعيف والموضوع.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٤).

(٢) انظر الرّسالة للشّافعي (ص٣١٠).

(٣) مقدّمة في أصول التّفسير (٤/٢).

(٤) الاتقان في علوم القرآن (٤٤١/١).

الثّاني: الأخذ بقول الصّحابي، فإنّ تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النّبيّ ﷺ.

الثّالث: الأخذ بمطلق اللّغة، روى البيهقي عن مالك قال: "لا أُوتَى برجلٍ غير عالمٍ بلغة العرب يفسّر القرآن إلا جعلتُه نَكالاً"(١).

الرّابع: التّفسير بالمقتضى من معنى الكلام، والمقتضى من قوة الشّرع، وهذا هو الذي دعا به النّبيّ ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: "اللهم فقّهه في الدّين، وعَلِّمه التّأويل"(٢)، والذي عَنَاه عليٌّ بقوله رضي الله عنه: "أو فهمٌ أُعطيهُ رجلٌ مسلمٌ"(٣).

وقسَّم بعضهم التّفسير إلى ثلاثة أقسام:

١- تفسيرٌ بالرواية، ويُسمّى التّفسير المأثور.

٢- تفسيرٌ بالدّراية، ويسمّى التّفسير بالرأي.

٣- تفسيرٌ بالإشارة، ويسمّى التّفسير الإشاري.

التفسير المأثور

هو ما جاء في القرآن، أو السّنّة، أو كلام الصّحابة بياناً لمراد الله من كتابه.

المفسرون من الصّحابة كثيرٌ منهم: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وأُبيّ بن كعب، وعبد الله بن الزّبير، وأبو موسى الأشعري، رضي الله عنهم جميعاً.

والمفسّرون من التّابعين طبقات:

١- طبقة أهل مكّة:

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٨٧).

(٢) رواه أحمد (٢٢٧٤).

(٣) رواه البخاري (١١١).

وهم أعلم النّاس بالتفسير، لأنّهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير، وطاووس.

٢- طبقة أهل المدينة منهم:

- زيد بن أبي أسلم، أخذ عنه ابنه عبد الرحمن، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة.
- وأبو العالية وهو من رواة أُبيّ بن كعب وقد رَوَى عنه الربيع بن أنس.
- ومحمّد بن كعب القُرَظي الذي قال فيه ابن عون: "ما رأيتُ أحداً أعلم بتأويل القرآن من القُرَظي".

٣- طبقة أهل العراق منهم:

- مسروق بن الأجدع، كان وَرعاً زاهداً، صَحِبَ ابن مسعود، قال ابن معين فيه: "ثقةٌ لا يُسأَلُ عنه"، وكان القاضي شُريح يستشيره في معضلات المسائل، روى عنه كثيرون.
- وقتادة بن دَعامة، وهو من رواة ابن مسعود، شهد له ابن سيرين في الحفظ والضّبط، وقد قال فيه سعيد بن المسيّب: "ما رأيتُ عراقياً أحفظ من قتادة".
- سعيد بن المسيّب سيّد التّابعين، أبو محمّد.

[تراجم المفسرين من التابعين]

ترجمة سعيد بن جبير(١):

هو أبو محمّد، أو أبو عبد الله، سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، كان حبشيَّ الأصل، أسودَ اللون، سمع جماعةً من أئمّة الصّحابة، روى عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. قال خَصيف: "كان من أعلم التّابعين بالطّلاق سعيد بن المسيب، وبالحجّ عطاء، وبالحلال والحرام

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النّبلاء (٣٥٥/٧).

طاووس، وبالتّفسير أبو الحجّاج مجاهد بن جبر، وابن عباس يثق بعلمه ويحيل عليه مَن يستفتيه، وكان يقول لأهل الكوفة: "أليس فيكم ابن أمّ الدّهماء" يعني سعيد بن جبير".

ويروي عمرو بن ميمون عن أبيه أنّه قال: "لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحدٌ إلا وهو محتاجٌ إلى علمه"، وقد وثّقه علماء الجرح والتعديل، قُتِل سنة (٩٥) هـ وعمره (٤٩) سنة، قتلة الحجّاج، وله مناظرةٌ معه قبلَ قتله.

مجاهد بن جبر[١]:

هو المكّي المقرئ المفسّر، أبو الحجّاج المخزومي، كان أحد العلماء الأثبات، ولد سنة (٢١) هـ في خلافة عمر ﷺ، وتوفي سنة (١٠٤) هـ بمكّة وهو ساجدٌ.

كان أقلّ أصحاب ابن عباس روايةً عنه في التّفسير، وكان أوثقهم، لهذا اعتمد على تفسيره الشّافعي والبخاري وغيرهما، وينقل البخاري كثيراً من التّفسير عن مجاهد في الجامع الصّحيح.

قال: "عرضتُ القرآن على ابن عباس ثلاثين مرةً"[٢]، ورُويَ عنه بلفظ: "عرضتُ القرآن على ابن عباس ثلاث عَرْضَات أقفُ عند كلّ آيةٍ"[٣]، ولا تعارض فالثّلاثون مرةً لكمال الضّبط، والعرضات الثّلاث للتّفسير.

ورُويَ عن مصعب أنّه قال: "كان أعلمهم بالتّفسير مجاهد، كان ثقةً عالماً فقيهاً كثير الحديث".

وأخرج ابن جرير عن سفيان الثّوري قال: "إذا جاءك التّفسير عن مجاهدٍ فحسبُك به"[٤].

---

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النّبلاء (٦/٨).

(٢) انظر الاتقان في علوم القرآن (٤٥٤/١).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٣١٠٥).

(٤) تفسير ابن جرير الطبري (٩٦/١).

وقال الذّهبي في الميزان: "أجمعت الأمّة على إمامة مجاهدٍ والاحتجاج به"[١].

عكرمة مولى ابن عبّاس[٢]:

هو أبو عبد الله، مولى ابن عبّاس، روى عن ابن عبّاس وعليّ وأبي هريرة ﷺ، توفي سنة (١٠٤) هـ، اختلف العلماء في توثيقه، روي عن الشّعبي فيه: "ما بقي أحدٌ أعلم بكتاب الله من عكرمة".

قال عكرمة: "كان ابن عبّاس يجعل في رجلي الكَبِل ويعلّمني القرآن والسّنّة، وكلّ شيءٍ أحدّثكم في القرآن فهو عن ابن عبّاس"[٣].

طاووس اليماني[٤]:

طاووس بن كَيسان اليماني الحِميري، روى عن العبادِلة الأربعة وغيرهم، وروي عنه أنّه قال: "جالستُ خمسين من الصّحابة"، وكان رحمه الله عالماً متقناً خبيراً بمعاني كتاب الله تعالى.

ولقد كان على جانبٍ عظيمٍ من الورع والأمانة حتى شَهِدَ له ابن عبّاس ﷺ فقال فيه: "إنّي لأظنّ طاووساً من أهل الجنّة"[٥]. وقال عمْرو بن دينار: "ما رأيتُ أحداً مثل طاووس".

وقد أخرج له أصْحاب الكتب السّتّة، وقال ابن معين: "إنّه ثقةٌ"، وقال ابن حبّان: "كان من عُبَّاد أهل اليمن، ومن سادات التّابعين كان مستجاب الدّعوة، وحجّ أربعين حجّةً"، وقال الذّهبي: "كان طاووس شيخ أهل اليمن، وكان كثير الحجّ، فاتّفق موته بمكّة سنة مائةٍ وستّة".

---

(١) ميزان الاعتدال (٢/٢٩٧).

(٢) انظر ترجمته في سير أعلام النّبلاء (٩/١٦).

(٣) انظر: الطّبقات الكبرى لابن سعد (٢/٣٨٦).

(٤) انظر ترجمته في سير أعلام النّبلاء (٩/٤٢).

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/٤).

عطاء بن أبي رباح[1]:

أبو محمّد، المكّي، القرشي، مولاهم، ولد سنة (٢٧) هـ، وتوفي سنة (١١٤) هـ.

كان أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عَمي.

روى عن ابن عباس وابن عمر وابن عمرو وغيرهم، وحدَّث عن نفسه بأنّه أدرك مائتين من الصّحابة ﷺ. وكان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث، وانتهت إليه فتوى مكّة.

وكان ابن عباس ﷺ يقول لأهل مكّة إذا جلسوا إليه: "تجتمعون إليَّ يا أهل مكّة وفيكم عطاءٌ". وقال فيه أبو حنيفة: "ما رأيتُ فيمَن لقيتُ أفضل من عطاء، ولا لقيتُ فيمَن لقيت أكذب من جابرٍ الجعفي". وقال ابن حبّان: "كان من سادات التّابعين فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً".

الحسن البصري[2]:

سيد التّابعين، توفي سنة (١١٠) هـ، قال ابن سعدٍ فيه: "كان ثقةً مأموناً، وعالماً جليلاً، وفصيحاً، وتقياً نقياً".

عطاء بن أبي مسلم الخراساني[3]:

بصريٌّ، أقام بخراسان، ابتُلِيَ بسوء الحفظ، اختلفوا في توثيقه.

كلمة الإنصاف في التّفسير المأثور أنّه نوعان:

١- ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله، وهذا لا يليق بأحدٍ ردّه ولا يجوز إهماله.

٢- ما لم يصحّ لسببٍ من الأسباب، فهذا يجب ردّه ولا يجوز قَبوله.

---

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النّبلاء (٨٦/٩).

(٢) انظر ترجمته في سير أعلام النّبلاء (١٣٥/٨).

(٣) انظر ترجمته في سير أعلام النّبلاء (١٧٧/١١).

وقد لاحظ بعض العلماء على ما روي عن التّابعين اعتباراتٍ هامة:

١- بأنّ ما كان من قبيل الرأي فليس له قوّة المرفوع إلى النّبيّ ﷺ.

٢- وبأنّ ما لم يتوفر فيه الإسناد الصّحيح فهو غير مقبول.

٣- وبأنّ ما اشتمل عليه من الإسرائيليات يجب تمحيصها ضمن القواعد الشّرعية.

ملحوظة:

إنّ الأعلام الثّلاثة: (عبدالله بن سلام، ووهب بن منبّه، وكعب الأحبار) عدولٌ ثقاتٌ.

فأمّا ابن سلام فهو من خِيرة الصّحابة، ومن المبشّرين بالجنة، روى الترمذي عن معاذ ﷺ قال: "سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنّه عاشر عشرةٍ في الجنّة"(١)، وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأحقاف:١٠] وآية: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣].

وأما وهب بن منبّه فقد كان تابعياً جليلاً، أسلم في خلافة أبي بكر ﷺ، وناهيك أنّ الصّحابة أخذوا عنه كما أخذ هو عن الصّحابة، وله في صحيح البخاري وغيره.

لكنْ يجب أنْ نفرّق بين ما يصحّ أنْ يقال فيهم، وما يصحّ أنْ يُنقل عنهم، فأمّا ما يصحّ أنْ يقال فيهم فهو الثّقة والتّقدير، وأمّا الذي يُنقل عنهم فمنه الصّحيح وغير الصّحيح، لكن عدم صحّة ما لم يصحّ لا يُعَلَّلُ باتّهامهم وجرحهم فقد علمتَ مَن هم، إنما يعلّل بأحد أمرين:

١- رجال السّند الذين ينقلون عنهم فقد يكون بينهم متّهمٌ في عدالتِه وضبطِه.

٢- أنْ يكون ما رووه من الإسرائيليات، فإنْ كانت مما يقرره الإسلام قَبِلْنَاه، وإنْ كانت مما يردّه ردَدْناه، وإنْ كانت ممّا سَكَتَ عنه سكتْنا عنه عملاً بقوله ﷺ: "إذا حدّثَكُم أهل الكتاب فلا تُصَدِّقوهم ولا تُكذّبوهم"(٢).

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٠٤).

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤٤).

[أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور]

وقد قال محمّد حسين الذّهبي رحمه الله[1]: "ونستطيع أنْ نُرْجِعَ أسباب الضّعف في رواية التّفسير المأثور إلى أمورٍ ثلاثةٍ: "**أولها**: كثرة الوضع، **وثانيها**: دخول الإسرائيليات، و**ثالثها**: حذف الأسانيد".

أولاً: الوضع في التفسير:

نشأ مع نشأة الحديث، فكما أنّه يوجد في الحديث الصّحيح والحسن والضّعيف، وفي رواته مَن هو موثوقٌ به، ومَن هو مشكوكٌ فيه، ومَن هو متَّهمٌ بالوضع فكذلك في التّفسير من رَوى ومن رُوي عنه.

وكان مبدأ ظهور الوضع حين اختلف المسلمون إلى جُمهورٍ وشيعةٍ وخوارجَ.

أسباب الوضع كثيرةٌ منها:

أ- التّعصب المذهبي، فقد وضعت الشّيعة وَوَضَع الخوارج على لسان رسول الله ﷺ أو أحد أصحابه ما يُؤيّد مذاهبهم.

ب- اللّون السّياسي، فقد وُضع وأُسند لعليٍّ ولابن عباسٍ الكثير لمنزلتهما من رسول الله ﷺ.

ج- ما وَضَعَه أعداء الإسلام كما فعل ابن سبأ.

وكان من أثر الوضع في الحديث: فقدانُ كثيرٍ مما خلَّفه لنا أعلام المفسّرين من السّلف بسبب الشّكوك واختلاط الصَّحيح بالسّقيم.

(١) التفسير والمفسّرون (٤/٦).

ثانياً: الإسرائيليات:

وهي ما نقل عن اليهود والنّصارى. فاليهود تعتمد ثقافتهم على التّوراة، وكثيراً ما يستعمل المسلمون واليهود لفظ التوراة ويطلقونه على كلّ الكتب المقدّسة عند اليهود فيشمل الزّبور وغيره وتُسمي التوراة: (العهد القديم).

وكان لليهود بجانب التوراة سننٌ ونصائح تَحَمَّلُوهَا عن موسى عليه الصّلاة والسّلام مشافهةً، ومع تعاقب الأجيال دُوّنت وعُرِفت باسم (التّلمود). ووُجد بجوار ذلك قصص وتاريخ وتشريع وأساطير.

والنّصارى تعتمد ثقافتهم على الإنجيل، والأناجيل يُطلقون عليها (العهد الجديد)، والكتاب المقدّس عند النّصارى يشمل التّوراة والإنجيل، ويُطلق عليه: (العهد القديم والعهد الجديد).

وإذا نظرنا في قصص الأنبياء في التّوراة والإنجيل ونظرناها في القرآن نجد أنّ القرآن يقتصر على موضع العِظَة، ولا يتعرض لجزئيات المسائل فلا يذكر تاريخ الوقائع، ولا أسماء البلدان التي حصلت فيها، ولا يذكر في الغالب أسماء الأشخاص.

مثلاً: في قصّة آدم عليه الصّلاة والسّلام لم يتعرض القرآن لمكان الجنّة، ولا لنوع الشّجرة التي نهى آدم وزوجه عن الأكل منها، ولا الحيوان الذي تقمّصَه الشيّطان فدخل الجنّة ليَزِلَّ آدم وزوجَه، كما لم يتعرض للبقعة التي هبط إليها آدم وزوجه، بينما ذُكِرَ في التوراة كثيرٌ من هذه الأمور.

ومثلاً: في قصّة عيسى ومريم، ومعجزات عيسى عليه الصّلاة والسّلام اقتصر على موضع العِظة ومكان العِبرة، فلم يذكر كيفية الولادة، ولا المكان الذي وُلد فيه، ولا الشّخص الذي قَذَفَ السّيدة مريم، ولا نوع الطّعام الذي نزلت به المائدة، ولا لحوادث جزئية من مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، بينما ذَكَر الإنجيل كثيراً من هذه الأمور.

وهذا دعا المسلمين إلى الأخذ بالتفصيلات التي ذكرت، وذكروها في كتب التّفسير وهذا مبدأ دخولها في التّفسير.

غير أنَّ الصَّحابة لم يسألوا أهل الكتاب عن كلّ شيءٍ ولم يقبلوا منهم كلّ شيءٍ، بل كانوا يسألوا عن أشياء لا تعدو أنْ تكون توضيحاً للقصّة، وبياناً لما أجمله القرآن منها، مع توقّفهم فيما يُلقى إليهم، فلا يحكمون عليه بصدقٍ ولا كذبٍ ما دام يحتمل كلا الأمرين امتثالاً لما قال رسولُ الله ﷺ: "لا تُصَدِّقُوا أهل الكتاب ولا تُكَذّبُوهم وقولوا: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾"(١).

كما أنّهم لم يسألوهم عن شيءٍ يتعلّق بالعقيدة، أو يتصل بالأحكام، إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن.

كذلك كانوا لا يَعْدِلُون عما ثبت عن الرّسول ﷺ إلى سؤال أهل الكتاب، كذلك كانوا لا يسألون عن الأشياء التي يُشْبِه أنْ يكون السّؤال عنها نوعاً من العبث واللّهو، كالسّؤال عن لون كلبِ أهل الكهف، والبعض الذي ضُربَ به القتيل من البقرة، ومقدار سفينة نوحٍ ﷺ، ونوع خشبها، واسم الغلام الذي قَتَلَه الخضر، قال الدّهلوي: "وكانت الصّحابة ﷺ يعدُّون مثل ذلك قبيحاً من قبيل تضييع الأوقات".

كذلك كان الصّحابة لا يصدّقون اليهود فيما يخالف الشّريعة ويردّون عليهم خطأهم ويبيّنون لهم وجه الصّواب فيه، فمِن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ عنه أنّ الرّسول ﷺ ذَكَرَ يوم الجمعة فقال: "فيها ساعةٌ لا يُوافِقُها عبدٌ مسلمٌ وهو قائمٌ يصلّي، يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاها إيّاه، وأشار بيده يقلّلُها"(٢).

فقد اختلف السّلف في تعيين هذه السّاعة؟ وهل هي باقيةٌ أو رُفعت؟ وهل هي في جمعةٍ واحدةٍ أو في كلّ جمعةٍ؟ فنجد أبا هريرة ﷺ يسأل كعب الأحبار عن ذلك فيجيبه كعبٌ:

(١) رواه البخاري (٤٤٨٥).

(٢) رواه البخاري (٩٣٥).

"بأنّها في جمعةٍ واحدةٍ من السّنة" فيردّ عليه أبو هريرة قولَه هذا ويبيّن له: أنّها في كلّ جمعةٍ، فيرجع كعبٌ إلى التّوراة فيرى الصّواب مع أبي هريرة فيرجع إليه".

ويسأل أبو هريرة عبد الله بن سلام عن تحديد هذه السّاعة ويقول: "أخبرني ولا تضن عليّ"، فيجيبه عبد الله بن سلام بأنّها: "آخر ساعةٍ في يوم الجمعة"، فيردّ عليه أبو هريرة بقوله: "كيف تكون آخر ساعةٍ في يوم الجمعة وقد قال رسول الله ﷺ: "لا يصادفُها عبدٌ مسلمٌ وهو يصلّي وتلك السّاعة لا يُصلَّى فيها". فيجيب عبد الله بن سلام بقوله: "ألم يقل رسول الله ﷺ: "مَن جلس مجلساً ينتظر الصّلاة فهو في صلاةٍ حتّى يصلّي"[١].

ومهما يكن فالصَّحابة لم يخرجوا عن دائرة الجواز التي حدَّها لهم رسول الله ﷺ: "بلِّغوا عنّي ولو آيةً، وحدّثُوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج، ومَن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النّار"[٢].

كما لم يخالفوا قوله ﷺ: "لا تُصَدّقُوا أهل الكتاب ولا تُكذّبوهم وقولوا آمنّا بالله وما أُنزل إلينا ..."[٣]، ولا تعارض بين الحديثين لأنّ الأولَ أباح لهم أنْ يحدّثِوا عمّا وقع لبني إسرائيل من الأعاجيب، لِمَا فيها من العِبرة والعِظة، بشرط أنْ يعلموا أنّه ليس مكذوباً لأنّ الرّسول ﷺ لا يُعقل أنْ يبيحَ لهم رواية المكذوب.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح عند شرحه لهذا الحديث: "وقال الشّافعي: "من المعلوم أنّ النّبيّ ﷺ لا يُجيز التّحدث بالكذب، فالمعنى حدِّثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كَذِبَه، وأمّا ما لا تجوّزونه فلا حَرَجَ عليكم في التّحدث به عنهم، وهو نظير قوله: "إذا حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقُوهم ولا تُكذّبوهم"، ولم يَرِد الإذن ولا المنع من التّحدث لما يُقطع بصدقه"[٤].

---

(١) رواه أبو داود (١٠٤٦).

(٢) رواه البخاري (٣٤٦١).

(٣) رواه البخاري (٤٤٨٥).

(٤) فتح الباري (٣٨٨/٦).

وأمّا الحديث الثّاني فيُراد منه التوقّف فيما يُحدّث به أهل الكتاب مما يكون محتملاً للصّدق والكذب، وقال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: "لا تُصدّقُوا أهل الكتاب ولا تُكذّبوهم": "أي إذا كان ما يُخْبِرونكم به محتملاً لئلا يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذّبوه، أو كذباً فتصدّقُوه، فتقعوا في الحرج، ولم يرد النّهي عن تكذيبهم فيما وَرَدَ شرعُنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما وَرَدَ شرعنا بوِفَاقه، نبّه على ذلك الشّافعي رحمه الله، وعلى هذا نحمل ما جاء عن السّلف من ذلك"(١).

وأمّا ما أخرجه الإمام أحمد وابن أبي شيبة والبزّار من حديث بن عبد الله أنّ عمر بن الخطّاب ﷺ أَتى النّبيّ ﷺ بكتابٍ أصابَه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه فغضب وقال: "أَمُتَهَوِّكُونَ (أي أمتحيّرون) فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي"(٢) فلا يعارض ما قلنا من الجواز، قال الحافظ ابن حجر في الفتح: "وكان النّهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية والقواعد الدّينية، خشية الفتنة، ولما زال المحذور وقع الإذن في ذلك لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار"(٣).

ويمكن أنْ ندفع ما يُتوهم من التعارض بما نقله ابن بطّال عن المهلّب أنّه قال: "إنّما هو في سؤالهم عما لا نصّ فيه، لأنّ شرعنا مكتفٍ بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نصٌّ ففي النّظر والاستدلالِ غنىً عن سؤالهم، ولا يدخل في النّهي عن سؤالهم عن الأخبار المصَدِّقَة لشرعنا، والأخبار عن الأمم السّالفة"(٤). وقد أخرج البخاري عن ابن عبّاس ﷺ أثراً يشدّد فيه النّكير على مَن يأخذون من أهل الكتاب ويُصدّقُونهم في كلّ شيءٍ.

---

(١) فتح الباري (١٣٨/٨).

(٢) رواه أحمد (١٤٦٢٣)، وابن أبي شيبة في المصنّف (٢٦٤٢١).

(٣) فتح الباري (٤٩٨/٦).

(٤) فتح الباري (٢٢٤/١٢).

وأما ما نُسب لعبد الله بن عمرو بن العاص أنّه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كُتب اليهود فكان يحدِّث منهما، فليس على إطلاقه بل كان يحدِّث منهما في حدود ما فهمه من الإذن في قوله ﷺ: "حدّثُوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج"[1] كما نصّ على ذلك ابن تيمية.

وأمّا التّابعون فقد توسّعوا في الأخذ عن أهل الكتاب، فكثُرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية في التّفسير، ويرجع ذلك لكَثرة ما دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداثٍ يهوديةٍ أو نصرانيةٍ، فظهرت في هذا العهد جماعةٌ من المفسّرين أرادوا أنْ يسدّوا الثّغرات القائمة في التّفسير فحشَوا التّفسير بكثيرٍ من القصص المتناقضة. ومن هؤلاء: مقاتل بن سليمان المتوفى سنة (١٥٠) هـ.

ثمّ جاء بعد عصر التّابعين مَنْ عَظُم شَغَفُهُ بالإسرائيليات، وأفرط في الأخذ منها، واستمر هذا الشّغف بها والوَلَع بنقل الأخبار التي هي من قبيل الخرافات إلى أنْ جاء عصر التّدوين للتّفسير، فُوجِدَ مِنَ المفسرين مَن تساهل فأكثر منها، وملأ صفحات التّفسير بهذا القصص الإسرائيلي.

وعلَّل ابن خلدون هذا الموضوع باعتباراتٍ اجتماعيةٍ وأخرى دينيةٍ، فَعَدَّ من الاعتبارات الاجتماعية غَلَبة البداوة والأُميّة على العرب، وتشوقِهم لمعرفة ما تتشوف إليه النّفوس البشرية من بَدء الخليقة، وأسرار الوجود، وهم إنّما يسألون أهل الكتاب قبلهم. وعَدَّ من الاعتبارات الدّينية التي سَهَّلت لهم تلقي المرويات في تساهلٍ وعدم تحرٍ للصّحة أنّها ليست مما يَرجَع إلى الأحكام فيُتَحرى فيها الصّحة التي يجب بها العملُ.

أثر الإسرائيليات في التّفسير:

كان لها أثرٌ سيئٌ، فاختلطت الأخبار الصّحيحة بغيرها، ونسبةُ هذه الإسرائيليات إلى بعضِ مَن آمن مِن أهل الكتاب جعلتْ عند بعض النّاس اتّهاماً وريبةً لهم.

(١) رواه البخاري (٣٤٦١).

أنواع الإسرائيليات ثلاثةٌ:

١- ما يُعلم صحّته، بأنْ نُقل عن النّبيّ ﷺ نقلاً صحيحاً، كتعيين اسم صاحب موسى ﷺ بأنّه الخَضِر، فقد جاء على لسان رسول الله ﷺ كما عند البخاري[١]، أو كان له شاهدٌ من الشّرع يؤيده، وهذا صحيحٌ مقبولٌ.

٢- ما يُعلم كَذِبُه، بأنْ يناقضَ ما عرفناه من شرعنا، أو كان مستحيلاً عقلاً، وهذا لا يصحّ قبولُه ولا روايته.

٣- ما لا يُعلَم صدقه ولا كذبه، فلا نصدقه ولا نكذبه عملاً بقوله ﷺ: "لا تُصَدّقُوا أهل الكتاب ولا تُكذّبُوهم" ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٦][٢].

وهذا القسم والله أعلم غالبه مما ليس فيه فائدةٌ تعود إلى أمرٍ دينيٍّ، مثل أسماء أصحاب الكهف وكلبهم، وعصا موسى ﷺ، وغير ذلك.

وما جاء من هذا القبيل عن الصّحابة بطريقٍ صحيحٍ وجزمَ به فهو كالقسم الأوّل، وإنْ لم يجزم به فالنّفس أميل إلى قبوله لاحتمال أنْ يكون الصّحابي سمعه من النّبيّ ﷺ، أو ممّن سمعه منه، وأمّا ما جاء عن بعض التّابعين فهو مما يُتوقّف فيه ولا يُحكم عليه بصدقٍ ولا كذبٍ ما لم يتّفق أهل الرواية من علماء التّفسير على ذلك، فإن اتّفقوا فإنّه أبعد من أنْ يكون مسموعاً من أهل الكتاب، وحينئذ تسكن النّفس إلى قبوله والأخذ به، والله أعلم.

(١) رواه البخاري (٣٢٢٠).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٥).

الموقف تجاه الإسرائيليات:

بعد أن علمنا أنواعها وعرفنا الأحاديث الواردة في شأنها، أصبحَ الموقف واضحاً فيجب أنْ نكون على جانبٍ كبيرٍ من اليقظة والحذر، فما كان متّفقاً مَعَ شرعنا قبلناه، وما كان مخالفاً ردْناه، وما كان غير متفقٍ ولا مختلفٍ تجوز لنا روايته ولا حرج، ولكن نبتعِد عمّا يُخالف العقل والمنطق، ونبتعِد عن الدخول فيما لا فائدة فيه، وعلى المفسّر أنْ يجرّد التّفسير عن كلّ ما لا خير فيه.

ويحسُن هنا أن نترجم لعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الذي هو قطب الإسرائيليات في عهد التابعين: أصله روميٌّ نصرانيٌّ، كان من علماء مكّة ومحدّثيهم، ولو رجعنا إلى تفسير الطبري لوجدنا كثيراً مما يرويه ابن جرير في تفسير الآيات التي وردت في النّصارى مما يرويه عن ابن جريج. قال ابن سعد: "ولد سنة (٨٠) هـ، واختلف في وفاته فقيل: سنة (١٥٠) هـ، وقيل سنة (١٥٩) هـ".

وهو أوّل من صنّف الكتب في الحجاز، رُويت عنه أجزاء كثيرة في التفسير عن ابن عبّاس، منها الصّحيح ومنها ما ليس كذلك، واختلف العلماء في توثيقه وتثبّته فيما يرويه، ونقل الكثير عنه صفة التدليس قيل: "كان يرى الرخصة في المتعة وقد تزوج نحواً من تسعين امرأةً نكاح متعةٍ"، وروي عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أنّ بعض أحاديثه موضوعة، كان ابن جريج لا يبالي من أين يأخذها، وقال فيه الإمام مالك:"كان ابن جريح حاطب ليل".

فعلينا أن نحترز من رواياته حتى لا نروي ضعيفاً أو نعتمد على سقيم[1].

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النّبلاء (٢٩٦/١١).

ثالثاً: حذف الإسناد:

الصّحابة كلهم عدولٌ، ثقاتٌ، أمناءُ، ولذلك لم يُعرف أنّهم كانوا يسألون عن الإسناد، وإذا طلب بعضهم الشّهادة أو اليمين من الرّاوي فهو لزيادة التّأكد والتّثبت.

في عصر التّابعين ظهر الوضع، وفشا الكذب، ولذلك فإنّهم لا يقبلون حديثاً إلا إذا جاء بسنده، وثبتت لهم عدالة رواته، فقد روى مسلمٌ في مُقدِّمَةِ صحيحه عن ابن سيرين أنّه قال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا: سَمُّوا لنا رجالكم"(١).

ثم بعدَ عصر التابعين أُلّفت تفاسير مع ذكر الأسانيد، كتفسير ابن عيينة، ووكيع بن الجراح، وغيرهما، ثمّ جاء بعد هؤلاء أقوامٌ ألّفوا في التّفسير فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال غير معزوةٍ إلى قائليها، ولم يتحروا الصّحة فيما يروون، فدخل من هنا الدّخيل والتبس الصّحيح بالعليل. ثمّ صار كلّ مَن يسْنَح له قولٌ يُوردُه، ومَن يخطر بباله شيءٌ يعتمده، ثمّ ينقل ذلك عنه إلى مَن يجيء بعده ظاناً أنَّ له أصلاً.

وحَذْف الأسانيد جعل مَن ينظر فيها يظُنّ صحّة كلّ ما ينقل فيها، فيحدُث الوهم والاختلاط، وابن جرير بذكره الأسانيد يرى أنّه خرج من العُهدة، وهذا في الحقيقة يخفّف على الباحث طريق البحث عن الحقيقة، والله الموفق.

(١) مقدمة صحيح مسلم (١/١١).

أشهر ما دُوّن من كتب التّفسير بالمأثور:

١- جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطّبري.

٢- بحر العلوم لأبي اللّيث السّمرقندي.

٣- الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثّعلبي.

٤- معالم التنزيل لأبي محمّد الحسين البغوي.

٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي.

٦- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء الحافظ ابن كثير.

٧- الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن الثّعالبي.

٨- الدّر المنثور في التفسير المأثور لجلال الدّين السّيوطي.

التفسير بالرأي

المراد بالرأي: الاجتهاد، فإنْ كان الاجتهاد مُوَفّقاً أي مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه، بعيداً عن الجهالة والضّلالة، فالتّفسير به محمودٌ وإلا فمذمومٌ.

والأمور التي يجب الاستناد إليها في التّفسير نقلها السّيوطي في الإتقان عن الزرّكشي فقال ما ملخصه: "للنّاظر في القرآن لطلب التّفسير مآخذ كثيرة أهمّها أربعة:

١- النّقل عن رسول الله ﷺ مع التّحرز عن الضّعيف والموضوع.

٢- الأخذ بقول الصّحابي، فقد قيل: "إنّه في حكم المرفوع مطلقاً"، وخصّه بعضهم بأسباب النّزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه.

٣- الأخذ بمطلق اللّغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلى ما لا يدلّ عليه الكثير من كلام العرب.

٤- الأخذ بما يقتضيه الكلام، ويدلّ عليه قانون الشرّع، وهذا النّوع الرّابع هو الذي دعا به النّبيّ ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما في قوله: "اللهم فقّهه في الدّين وعلّمْه التّأويل"[1].

فمَن فسّر القرآن برأيه أي باجتهاده ملتزماً الوقوف عند هذه المآخذ معتمداً عليها فيما يرى من معاني كتاب الله كان تفسيره سَائِغاً جائزاً خَليقاً بأن يُسمّى (التّفسير المحمود).

ومَن حَادَ عن هذه الأصول وفسَّر القرآن غير معتمدٍ عليها كان تفسيره ساقطاً غير جائزٍ، خليقاً بأن يُسمّى (التفسير المذموم).

فالتّفسير بالرأي الجائز يجب أنْ يُلاحَظ فيه الاعتماد على ما نُقل عن الرّسول ﷺ وأصحابه، مما ينير السّبيل للمفسّر برأيه، وأنْ يكون صاحبه عارفاً بقوانين اللّغة خبيراً بأساليبها، وأنْ يكون بصيراً بقانون الشّريعة حتى يُنزّل كلام الله على المعروف من تشريعه.

(١) رواه أحمد (٢٢٧٤).

ويجب أنْ يبتعدَ عن الجرأة على تبيين مراد الله من كلامه على جهالةٍ بقوانين اللّغة والشّريعة، وعن حمل كلام الله على المذاهب الفاسدة، وعن الخوض فيما استأثر الله بعلمه، وعن القطع بأنّ مراد الله كذا من غير دليلٍ، وعن السّير مع الهوى والاستحسان.

وقد بيّن العلماء العلوم التي يجب توافرها في المفسّر فقالوا: "هي اللّغة، والنّحو، والصّرف، وعلوم البلاغة، وعلم أصول الفقه، وعلم التوحيد، وعلم أسباب النّزول، والقصص، والنّاسخ والمنسوخ، والأحاديث المبنيّة، والمجْمَل والمبهم، وعلى الموهبة وهي علم يُورِثُه الله تعالى لمن عمل بما عَلم، ولا يناله مَن في قلبه بدعةٌ أو كِبْرٌ أو حبّ دنيا أو ميلٍ إلى المعاصي، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[الأعراف:١٤٦].

وقال الشّاعر:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني أنّ العلم نورٌ ونورُ الله لا يُهدى لعاصي

والاختلاف في جواز التفسير بالرأي هل هو جائز أو ممنوع موجودٌ بين العلماء، والتحقيق: الجواز بشروطه، والمنع عند عدم توفر شروطه.

أهم كتب التفسير بالرأي (الممدوح منه والجائز)

١- تفسير الجلالين: جلال الدّين محمّد المحلي، وجلال الدّين عبد الرّحمن السّيوطي.

٢- أنوار التنزيل وأسرار التّأويل للإمام البيضاوي.

٣- مفاتيح الغيب للإمام فخر الدّين الرّازي.

٤- إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السّعود.

٥- روح المعاني للعلامة شهاب الدّين الألوسي.

٦- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدّين الحسن محمّد النّيسابوري.

٧- السّراج المنير في الإعانة على معرفة كلام ربّنا الخبير للعلّامة الشّيخ محمد الشّربيني الخطيب.

٨- مدارك التنزيل وحقائق التّأويل لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفي.

٩- تفسير الخازن لعلاء الدّين علي بن محمّد بن إبراهيم البغدادي.

١٠- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

تفسير الجلالين:

كتابٌ قَيِّمٌ سهلُ المأخذ، مختصر العبارة كثيراً، يكاد يكون أعظم التّفاسير انتشاراً، ومن أصغرها حجماً، تداولته طبقاتٌ مختلفةٌ من أهل العلم وغيرهم، وأوسع حواشيه حاشية الجمل، وعليه حاشية الصّاوي، اختاره فطاحل العلماء لتدريسه.

تفسير البيضاوي:

كتابٌ جليلٌ دقيقٌ، جمع بين التفسير والتّأويل على قانون اللّغة العربية، وقرّر الأدلة على أصول أهل السّنّة، عليه حواشٍ كثيرةٍ أحسن حواشيه المتداولة: حاشية الشّهاب الخفاجي.

تفسير أبي السّعود:

تفسيرٌ رائعٌ ممتازٌ، يستهويك حُسن تعبيره، ويروقك سلامة تفكيره، عني بتجلية معاني القرآن في بيان إعجازه مع سلامةٍ في الذوق، وتوفيقٍ في التّطبيق، ومحافظةٍ على عقائد أهل السّنّة، وبُعدٍ عن الحشو والتطويل، يَذكر مناسبة الآيات لبعضها، والسّورة لما قبلها وما بعدها.

تفسير النّسفي:

كتابٌ جليلٌ متداولٌ مشهورٌ سهلٌ ودقيقٌ، "هو كتابٌ وسط في التأويلات، جامعٌ لوجوه الإعراب والقراءات، متضمنٌ لدقائق علم البديع والإشارات، مرشحٌ لأقاويل أهل السّنّة والجماعة، خالٍ من أباطيل أهل البدع والضّلالة، ليس بالطّويل المملّ ولا بالقصير المخلّ"(١).

تفسير الخازن:

تفسيرٌ مشهورٌ يعني بالمأثور، وَلُوعٌ بالتوسّع في الروايات والقصص، وغالباً يُتبع القصص بما فيها من باطلٍ فلا ينخدع بها غِرٌّ ولا يُفْتَن جاهلٌ، وهو سهل العبارة.

تفسير الخطيب:

كتابٌ عظيم عَني بأشياء، منها: تقرير الأدلة وتوجيهها، والكلام على المناسبات بين السّورة والآيات، وسرد كثيرٍ من القصص والرّوايات.

تفاسير الباطنية:

كالقرامطة، والاسماعيلية، والنُصيرية، وهي وباءٌ انتقل من المجوس والوثنيين.

تفاسير الشّيعة:

والشّيعة نوعان:

١- **مغاليةٌ:** وهي التي أخرجت علياً ﷺ عن مرتبة البشرية فهو الله عندهم، وهي الباطنية: النُصيرية، والدروز، والإسماعيلية، وقالوا: بالحلول والتقمُّص.

٢- **وفئةٌ تفضّل علياً على أبي بكر وعمر** ﷺ جميعاً، ولهم عقائد خليط من الاعتزال والباطنية، وتفاسيرهم تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ تفاسير الباطنية منها: (مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار) للمولى عبد اللطيف الكازلاني من النّجف.

---

(١) انظر: مناهل العرفان (٣٩٥/١).

فالأرض يفسرها بالدّين، وبالأئمة، وبالشّيعة، وبالقلوب، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَآ﴾ [النساء:٩٧] المراد دين الله وكتاب الله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف:١٠٩] المراد القرآن.

٣- وهناك الشّيعة الزيدية والخلاف بينهم وبين أهل السّنّة ليس كبيراً جدّاً.

التفسير الإشاري

هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارةٍ خفيةٍ تظهر لأرباب السّلوك والتّصوف، ويمكن الجمعُ بينها وبين الظّاهر المراد أيضاً.

وقد اختلف العلماء في التفسير المذكور فمنهم مَن أجازه ومنهم مَن منعه، وسأنقل بعض أقوال العلماء في ذلك:

قال الزرّكشي في البرهان: "كلام الصّوفية في تفسير القرآن قيل: إنّه ليس بتفسيرٍ وإنّما هو معانٍ ومواجيدَ يجدونها عند التّلاوة كقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ [التوبة:١٢٣] إنّ المراد النّفس، يريدون أنّ علّة الأمر بقتال من يَلِينا هو القرب وأقرب شيءٍ من الإنسان نفسَه"(١).

وقال ابن الصّلاح في فتاويه: "وجدتُ عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسّر أنّه قال: صنّف أبو عبد الرّحمن السّلمي حقائق في التّفسير فإنْ كان قد اعتقد أنّ ذلك تفسير فقد كَفَرَ ... والظّنّ بمَن يُوثَق به منهم إذا قال شيئاً من ذلك أنّه لم يذكره تفسيراً ولا ذَهَب به مذهب الشّرح للكلّمة، فإنّه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية وإنّما ذلك منهم تنظيرٌ لما ورد به القرآن، فإنّ النّظير يُذكر بالنّظير، ومع ذلك يا ليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك لما فيه من الإيهام والتلبيس"(٢).

(١) البرهان في علوم القرآن (١/١٧٠).

(٢) فتاوى ابن الصّلاح (١/١٩٦).

وقال صاحب مناهل العرفان: "وقال النّسفي في عقائده: "النّصوص على ظواهرها، والعدول عنها إلى معانٍ يدّعيها أهل الباطل إلحاد". وقال التفتازاني في شرحه: "سُميت الملاحدة باطنية لادّعائهم أنّ النّصوص ليست على ظاهرها بل لها معانٍ لا يعرفها إلا المعلِّم، وقصدهم بذلك نفي الشّريعة بالكلّية، قال: وأمّا ما يذهب إليه بعض المحقّقين من أنّ النّصوص على ظواهرها ومع ذلك ففيها إشاراتٌ خفيّةٌ إلى دقائق تنكشف لأرباب السّلوك يمكن التوفيق بينها وبين الظّواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان" ... ومن هنا يُعلم الفرق بين تفسير الصّوفية المسمّى بالتفسير الإشاري، وبين تفسير الباطنية الملاحدة، فالصّوفية لا يمنعون إرادة الظّاهر بل يحضُّون عليه ويقولون: لا بدّ منه أولاً، وأمّا الباطنية فإنّهم يقولون: إنّ الظّاهر غير مراد أصلاً، وإنما المراد الباطن وقصدهم نفي الشّريعة".

وخَلُص صاحب مناهل العرفان إلى القول بأنّه يشترط لقبول التفسير الإشاري ثلاثة شروط:

١- ألا يتنافى وما يظهر من معنى النّظم الكريم.

٢- ألا يُدّعى أنّه المراد وحده دون الظّاهر.

٣- أنْ يكون له شاهدٌ شرعيٌّ يُؤيّده، وألا يكون له معارض شرعيٌّ أو عقليٌّ"[١].

أهم كتاب التّفسير الإشاري

تفسير النيسابوري، وتفسير الآلوسي، وتفسير التستري، وتفسير محي الدّين بن عربي.

تفسير الآلوسي:

اسمه (روح المعاني)، ومؤلفه شهاب الدّين، السّيد محمّد الآلوسي، البغدادي، مفتي بغداد، المتوفى سنة (١٢٧٠) هـ، وهذا التّفسير من أجلّ التفاسير وأوسعها وأجمعها، نظم فيه روايات

(١) ينظر مناهل العرفان (٢/٧٨).

السّـــلف بجانب آراء الخلف المقبولة، وألّف فيه بين ما يُفْهَمُ بطريق العبارة وما يفهم بطريق الإشارة"[1].

[تفاسير الفرق]

نماذج من تفاسير المعتزلة:

١- **كتاب الكشّاف للزمخشري:** ولد الزمخشري سنة (٤٦٧) هـ، وتوفي سنة (٥٣٨) هـ، برع في اللّغة والأدب والنّحو، ومعرفة أنساب العرب حتى فاق أقرانه، ثمّ تظاهر بالاعتزال ودعا إليه، وكتابه خيرُ كتابٍ يُرجع إليه من حيث البلاغة رغم نزعته الاعتزالية.

ويمتاز بأمور:

١- خلوّه من الحشو والتّطويل.

٢- سلامته من القصص والإسْرائيليات.

٣- اعتماده في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم.

٤- عنايته بعِلْمَي المعاني والبيان، والنّكات البلاغية تحقيقاً لوجوه الإعجاز.

٥- سلوكه فيما يقصد إيضاحه طريق السّؤال والجواب كثيراً، ويُعَنْوِنُ السؤال بكلمة: (إن قلتَ)، ويُعَنْوِنُ الجواب بكلمة: (قلتُ)، وعليه حواشٍ كثيرة منها: حاشية علاء الدين المعروف بالبهلوان، وحاشية الشّيخ حيدر، وحاشية الرهاوي، وحاشية ابن كمال زادة.

وهناك مواضع من كتابه ينحو فيها نحو الاعتزال، ويقرر عقيدة القول بالمنزلة بين المنزلين، وبأنّ أفعال العباد مخلوقةٌ لهم، وبأنّ رؤية الله في الدّار الآخرة مستحيلةٌ[2].

---

(١) ينظر مناهل العرفان (٦٢/٢).

(٢) ينظر مناهل العرفان (٥١/٢).

٢- **كتاب تنزيه الله عن المطاعن:** للقاضي عبد الجبّار بن أحمد بن الخليل، وكنيته أبو الحسن البغدادي، توفي سنة (٤١٥) هـ، كلّ همّهِ فيه موجّهاً نحو تأييد مذهبه، لذلك تراه لم يفسّر جميع القرآن بل يذكر من السّورة الآية التي يستطيع أنْ يؤوّلها على مقتضى عقيدته، ويؤيّد بها مذهب المعتزلة، وهذا الكتاب يحتوي كثيراً من الفوائد على رغم تعصبه المذهبي وعدم عنايته بالتّفسير كما يجب[١].

نماذج من تفسير الباطنية:

الباطنية رفضوا الأخذ بظاهر القرآن وقالوا: للقرآن ظاهرٌ وباطنٌ، والمراد منه باطنه دون ظاهره، ومنهم: القرامطة (نسبة إلى حمدان قرمط). والإسماعيلية (نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصّادق). ومنهم: الحرمية (يستبيحون المحرمات)، ومنهم البابكية (نسبة إلى بابك الذي خرج بأذربيجان) وهذا المذهب انتقل إليهم من المجوس.

ومن تأويلاتهم الفاسدة:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦] أن علياً ورث النّبيّ ﷺ في علمه.
- وأنّ (الجنابة): مبادرة المستجيب بإفشاء السّر قبل أنْ ينال رتبة الاستحقاق.
- و(معنى الغُسل): تجديد العهد على مَن فعل ذلك.
- و(معنى الطهارة): التبري من اتّباع كلّ مذهبٍ سوى مذهب الإمام.
- و(معنى الصّيام): الإمساك عن كشف السّر.
- و(أنّ الكعبة): هي النّبيّ ﷺ.
- و(الباب): علي.
- و(الصّفا): هو النّبيّ
- و(المروة): علي.

(١) ينظر مناهل العرفان (٥٣/٢).

وذُكر أنّ النّصيرية يقولون:

- (الجنابة): حبّ أبي بكر وعمر.
- و(الطّهارة): لعنهما.
- (التّين): الحسد.
- و(الزّيتون): الحسين.
- و(طور سِينين): السّيدة فاطمة.
- و(هذا البلد الأمين): يعني محمّداً ﷺ.
- (لقد خلقنا الإنسان): يعني أبا بكر.
- و(الفيل): عمر بن الخطّاب.
- وأنّ (الطّير الأبابيل): الأيتام الخمسة: عبد الله بن رواحة، والمقداد بن الأسود، وعثمان بن مظعون، وأبو الدَّرداء، وقنبر بن كادان.

وهذه التّأويلات الفاسدة من أشدّ وأنكى ما يُصاب به الإسلام والمسلمون لأنّها تؤدّي إلى نقض بناء الشّريعة والخروج من ربقة الإسلام كما حصل لهؤلاء.

القراءات والقراء

قال ابن الجزري: "إنّ القراءات علمٌ بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها، بعزو النّاقلة، والمقرئ: العالم بها ورواها مشافهةً. فلو حفظ التيسير مثلاً ليس له أنْ يُقرئ بما فيه إنْ لم يشافِه من شُوفِهِ به مسلسلاً، لأنّ في القراءات أشياء لا تُحْكَم إلا بالسمَّاع والمشافهة. والقارئ المبتدئ: مَنْ شرع في الإفراد إلى أنْ يُفرد ثلاثاً من القراءات، والمنتهي: مَن نقل من القراءات أَكثرَها وأشهَرَها"(١).

اختلاف القراءات:

إنّ المعوّل عليه في القرآن الكريم إنّما هو التّلقي والأخذُ عن الثّقات، ثقةٍ عن ثقةٍ وإمامٍ عن إمامٍ إلى النّبيّ ﷺ. فمنهم مَن أخذ القرآن بحرفٍ، ومنهم مَن أخذه بحرفين، ومنهم مَن زاد، ومنهم مَن جمع وجوه القرآات كلّها. واختلف أخذ التابعين عنهم، وأخذ تابع التابعين عن التّابعين، حتى وصل الأمر إلى أئمّة القرآن المشهورين، الذين تخصّصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها، ويُعنَوْنَ بها، وينشرونها.

طبقات الحفّاظ

لقد اشتهر في كلّ طبقة جماعةٌ بحفظ القرآن وإقرائه.

فالمشتهرون من الصّحابة ﷺ: عثمان، وعلي، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابتٍ، وابن مسعود، وأبو الدّرداء، وأبو موسى الأشْعري، وكلّهم قد أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية.

(١) منجد المقرئين (٩/١).

والمشتهرون من التّابعين: ابن المسيّب، وعروة، وسالم، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان بن يسار، وأخوه عطاء، وزيد بن أسلم، ومسلم بن جندب، ومحمّد بن شهاب الزّهري، وعبد الرحمن بن هرمز، ومعاذ بن الحارث (معاذ القارئي)، وغيرهم **بالمدينة**.

وعطاء، ومجاهد، وطاووس، وعكرمة، وابن أبي مُلَيكة، وعُبيد بن عمير، وغيرهم **بمكّة**.

وأبو العالية، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وجابر بن يزيد، والحسن، وابن سيرين، وقتادة، وغيرهم **بالبصرة**.

وعلقمة، والأسود، ومسروق، وعَبِيدَة، والربيع بن خيثم، والحارث بن قيس، وعمر بن شرحبيل، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرّحمن السّلمي، وعُبيد بن فَضَله، وأبو زُرْعة، وسعيد بن جبير، والنّخعي، والشّعبي وغيرهم **بالكوفة**.

والمغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب مصحف عثمان، وخُلَيد بن سعيد صاحب أبي الدرداء، وغيرهما **بالشام**.

ثم تفرغ قومٌ للقراءت يضبطونها ويعنون بها، ومنهم أئمّة القراءات السّبع، ثمّ الأئمة الثّلاثة المكمّلين للعشرة، ثم أئمّة القراءات الأربعة فوق العشرة.

أئمة القراءات السبع

١- نافع بن عبد الرّحمن بن أبي نعيم، المدني، انتهت إليه رئاسة القراء بالمدينة، توفي سنة (١٦٩) هـ، راوياه: قالون وورش.

٢- ابن كثير، أبو محمّد عبد الله، المكّي، إمام النّاس في القراءة من غير منازعٍ بمكّة، توفي سنة (١٢٠) هـ، راوياه: البزّي وقُنبُل.

٣- أبو عمر، زياد بن العَلاء البصري، من أعلم النّاس بالقراءة مع الصّدق والأمانة والثّقة في الدّين، مات سنة (١٥٤) هـ، راوياه: الدُّوري والسُّوسي.

٤- ابن عامر، عبد الله بن عامر، اليحصبي، ويحصب فخذ من حِمير وهو تابعي، توفي (١١٨) هـ، راوياه: هشام وابن ذكوان.

٥- عاصم، أبو بكر عاصم بن أبي النّجُود، جمع بين الفصاحة والإتقان، توفي سنة (١٢٧) هـ، راوياه: شعبة وحفص.

٦- حمزة بن حبيب الزيات، كان ورعاً، عالماً بكتاب الله، مجوّداً له، عارفاً بالفرائض والعربية، توفي سنة (١٥٦) هـ، راوياه: خَلَف وخلاَّد.

٧- الكسائي، أبو الحسن، علي بن حمزة الكسائي، النّحوي، المتوفي سنة (١٨٩) هـ، وراوياه: أبو الحارث والدُّوري.

٨- أبو جعفر، يزيد بن القعقاع القاري، توفي سنة (١٣٣) هـ، راوياه: ابن وَردان الحذّاء وابن جَمَّاز.

٩- يعقوب ابن اسحق الحضري، توفي سنة (١٨٥) هـ، راوياه: رَوْح بن عبد المؤمن ورُوَيْس.

١٠- خلف، أبو محمد بن هشام، راوياه: أبو يعقوب الوراق البغدادي وأبو الحسن الحدَّاد البغدادي.

فوائد اختلاف القراءات

١- الجمع بين حُكمين مثاله: يَطْهُرن يطَّهرْنَ.

٢- تفسير قراءة بقراءة.

٣- إعظام أجر هذه الأمّة بتتبّع القراءات واستنباط الأحكام منها.

٤- اتصال سند هذه الأمّة.

٥- إعجازٌ مصحوبٌ بالإيجاز، تقومُ القراءات مقام الآيات.

ضوابط لقبول القراءات

كلُّ قراءةٍ وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً، ووافقت العربية ولو بوجهٍ، وصحَّ إسنادها فهي القراءة الصّحيحة.

القراءات العشر متواترة

والتحقيق الذي يؤيده الدّليل هو أنّ القراءات العشر كلّها متواترةٌ، وهو رأي المحقّقين من الأصوليين والقرَّاء كابن السّبكي وابن الجزري.

وقد قال ابن الجزري: "القراءات العشر متواترةٌ فرشاً وأصولاً حال اجتماعهم وافتراقهم"(١).

(١) انظر: منجد المقرئين (٧٠/١).

حقيقة النّسْخ في القرآن الكريم
ومناقشة الشّبهات المثارة حولَه

تعريف النّسْخ لغةً واصطلاحاً:

النّسْخ في اللّغة: الإزالة والنّقل، يُقال: نَسخت الشّمسُ الظلَّ: أزالته، ونَسختُ الكتاب: نقلتُ ما فيه إلى آخر.

النّسْخ في الاصطلاح: رفع حكمِ دليلٍ شرعيّ أو لَفْظِهِ، بدليلٍ شرعيٍّ متراخٍ عنه.

و(الحكم) ما اقتضاه خطاب الشّرع المتعلق بأفعال المكلفين من طلبٍ أو تخييرٍ أو وضعٍ. والمراد برفعه: قطع تعلّقه بأفعال المكلفين، أو تغييره من وجوبٍ إلى إباحةٍ أو من إباحةٍ إلى تحريمٍ إلخ ...

وخرج برفع: التخصيص، فإنّه لا يرفع الحكم ولكن يقصره على بعض أفراده، وخرج فوات الحكم لوجود مانع، أو فوات شرطٍ.

والمراد بالدّليل: الشرعي (الكتاب والسّنّة)، فخرج الإجماع والقياس فإنّهما لا يَنْسَخَان، وخرج به رفع الحكم بدليلٍ عقليٍّ، كرفعه عن الميت، والنّائم، والمجنون، فسقوط التكليف عن هؤلاء يدلّ عليه العقل.

وخرج بقوله: ((متراخٍ عنه) الشّرط والصّفة والاستثناء، فيسمّى تخصيصاً لا نسخاً، ويُفهم من فحوى الكلام أنه لابدّ من التّعارض بين المتقدّم والمتأخّر بحيث لا يمكن الجمع بينهما وإلا فلا نسخ.

الفرق بين النّسْخ والبَداء:

البَداءُ في اللّغة يُطلق على معنيين:

١- الظّهور بعد الخفاء: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧].

٢- نشأة رأيٍ جديدٍ لم يك موجوداً: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [يوسف:٣٥]،

وهذان المعنيان جائزان في حق المخلوقين مستحيلان على الله، فالله أحاط بكلّ شيءٍ علماً: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ [الحديد:٢٢] ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩] ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾ [الرعد] ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠].

وبالرغم من كلّ الأدلة المتوفرة ضلّ قومٌ وزعموا أنّ النسْخ ضربٌ من البَداء، أو مستلزمٌ للبَداء، واجتمعت اليهود والرافضة على هذه الضّلالة، لكنّ اليهود أنكروا النّسْخَ، والرافضة أثبتوا النّسْخ ونسبوا البَداء إلى الله في صراحةٍ ووقاحةٍ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء:٤٣] فالأحكام وحكمها والعباد ومصالحهم والنّواسخ والمنسوخات معلومةٌ لله من قبلُ ظاهرةٌ لديه لم يخفَ منها شيءٌ عليه، والحكم المنسوخ منوطٌ بحكمةٍ أو مصلحةٍ تنتهي في وقت معلومٍ، والنّاسخ يجيء في هذا الوقت المعلوم منوطاً بحكمةٍ وبمصلحةٍ أخرى، ولا ريب أنّ الحكم والمصالح تختلف باختلاف النّاس وتتجدّد بتجدّد ظروفهم وأحوالهم.

واستدل الرافضة على ضلالتهم (البداء) بأمرين اثنين:

١- آية ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]. وهي عليهم لا لهم، فالله يغيّر ما شاء من شرائعه وأحكامه على وَفق علمه وإرادته، والتّغيّر في المعلوم لا في العلم، والمحو والإثبات على وَفق علمه سبحانه، والتغير بالمخلوق لا بالخالق، وفي النّسخ كشفٌ لنا وبيانٌ عن بعض ما سبق في علم الله المحيط بكلّ شيءٍ.

٢- أنهم تشبّثوا بآثار نسبوها لبعض الأئمّة، منها: أنّ علياً ﷺ قال: "لولا البَداء لحدثتُكم بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة". ومنها أنّ موسى بن جعفر قال: "البَداء ديننا ودين آبائنا في الجاهلية". وهذه مفترياتٌ وأكاذيب أوّل مَن حَاكها الكذّاب الثّقفي الذي كان يدّعي العصمة وعلم الغيب، فلمّا افتُضِح أمرُه وظهر كَذِبُه قال: "إنّ الله وعدني ذلك غير أنّه بدا له"، فإذا خاف نقمة النّاس نسب ذلك إلى أعلام بيت النّبوة وهم منها براء، واللّعين وأشياعه يحتجّون بكفرٍ على كفرٍ، ويستدلون بكذبٍ على كذبٍ، ويعالجون داءً بداءٍ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر:٣٣].

جواز النّسْخ عقلاً ووقوعه شرعاً

فأمّا جوازه عقلاً فإنّ الله أعلمُ بمصالح عباده، وشرع لهم ما يُصْلِحهم، والمصالح تختلف باختلاف الأزْمان والأحوال، فاقتضت حكمة الله أنْ يَشْرّع لهم في كلّ زمانٍ وفي حالٍ ما يُصلِحهم، وأمّا وقوعه شرعاً فهو كثيرٌ.

١- جاء في التّوراة: "أنّ الله أمر آدم أنْ يُزوّج بناتَه من بنيه، وَوَرَدَ أنّه كان يُولَد له في كلّ بطنٍ ذكرٌ وأنثى، فكان يُزوّج توأمة هذا للآخر، ثم حَرَّم الله ذلك بإجماع أصحاب الدّين من المسلمين واليهود والنّصارى".

٢- جاء في التوراة أنّ الله قال لنوحٍ عند خروجه من السّفينة: "إنّي جعلتُ كلّ دابّةٍ حيّةٍ مأكلاً لك ولذريتك، وأطلقتُ ذلك لكم كنباتٍ العُشْب، ما خلا الدم فلا تأكلوه"، ثمّ اعترفوا أنّ الله حرّم عليهم كثيراً من الدّواب.

٣- أنّ الله أمر إبراهيم بذبح ولده ثمّ فداه بكبشٍ عظيمٍ.

وجاء في القرآن الكريم:

أ- ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦]، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩].

ب- ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠].

وجاء في الحديث: "كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها"(١). "كنتُ أذنتُ لكم بالاستمتاع بالنّساء، ألا وإنّ الله حرّم ذلك إلى يوم القيامة"(٢).

أنواع النّسخ باعتبار البدل وعدمه نوعان

١- نسخٌ بلا بدلٍ، كنسخ تقديم الصّدقة بين يدي مناجاة رسول الله ﷺ إذْ كانت واجبةً.

٢- نسخٌ ببدلٍ أخفّ، كآيتي العدّة، وآيتي المصابرة.

٣- أو إلى مساوٍ كنسخ القِبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

٤- أو إلى أثقلٍ، كنسخ التخيير بين الصّوم والفطر مع دفع الفدية في بَدء الإسلام في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة:١٨٤] بوجوب الصّوم في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٦]، وكنسخ الحبس في الزّانية: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٥] بالجلد في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢] وبالحديث: "الثيّب بالثيّب جلدُ مائة وتُرجَم"(٣)، أو بآية الرجْم "الشّيخ والشّيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتّة"(٤).

(١) رواه مسلم (٩٧٧).

(٢) رواه مسلم (١٤٠٦).

(٣) رواه مسلم (١٦٩٠).

(٤) رواه أحمد (٢١٥٩٦).

والنّسْخ باعتبار النّصّ المنسوخ ثلاثةُ أقسامٍ

١- ما نُسخ حكماً وبقي تلاوةً:

كآية العدّة الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:٢٤٠] حيث نسخت بآية العدّة الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤].

وكآيتي المصابرة الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال].

وحكمة ذلك والله أعلم: التذكير بنعمة الله في النّسْخ، وبقاء ثواب التّلاوة، والتخفيف على النّاس.

٢- ما نُسخَ تلاوةً وبقي حكماً:

مثل آية الرجم، وحكمة ذلك: اختبار الأمّة بالعمل فيما لا تجد نصّه في القرآن، على عكس اليهود الذين امتنعوا من الرجم مع وجود النّص، وأيضاً التنفير من الزّنا وبشاعة صدوره من الشّيخ والشّيخة.

٣- ما نُسخَ تلاوةً وحكماً:

مثل (عشر رضعات معلومات) حيث نُسخت (بخمسٍ معلومات) كما وردَ عن السيدة عائشة رضي الله عنها[1]، فالمنسوخ نسخت تلاوته وحكمه، والنّاسخ نُسخت تلاوتُه وثبت حكمُه.

(١) رواه مسلم (١٤٥٢).

وقد صحّ عن أبيّ بن كعبٍ ﷺ أنّه قال: "كانت سورة الأحزاب توازي سورة البقرة"(١)
وقد صحّ عن أبي موسى الأشعري ﷺ أنّهم كانوا يقرأون على عهد رسول الله ﷺ سورةً في طول سورة براءة وأنّها نُسيت إلا آيةً منها وهي: "لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التّراب، ويتوب الله على مَن تاب"(٢).

أقسام النسخ باعتبار النّاسخ أربعة

١- **نسخ القرآن بالقرآن:** وقد أجمع القائلون بالنّسخ من المسلمين على جوازه عقلاً ووقوعه شرعاً.
٢- **نسخ القرآن بالسّنّة:** وقد أجازه مالك وأصحاب أبي حنيفة، ومنعه الشّافعي وأحمد في إحدى رواياته.
٣- **نسخ السّنّة بالقرآن:** واختلف فيه الفقهاء اختلافاً كبيراً فأجازه كثيرون ومنعه غيرهم.
٤- **نسخ السّنّة بالسّنّة:** وقد أجاز العلماء نسخ المتواتر بالمتواتر، والآحاد بالمتواتر، والآحاد بالآحاد، واختلفوا بنسخ الآحاد للمتواتر فأجازه البعض ونفاه الكثيرون.

أمثلة نسخ القرآن بالقرآن: مثل آيتي العدّة، وآيتي المصابرة.

أمثلة نسخ القرآن بالسنة: مثل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠]، نُسِخت على رأي البعض بالحديث: "لا وصية لوارث"(٣) .

أمثلة نسخ السّنّة بالقرآن: استقبال بيت المقدس في الصّلاة ثبت بالسّنّة، نسخ بآية: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:١٤٤].

أمثلة نسخ السّنّة بالسّنّة: "كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور فزوروها"(٤).

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٤٢٨).
(٢) رواه مسلم (١٠٥٠).
(٣) رواه الترمذي (٢١٢٠).
(٤) رواه مسلم (٩٧٧).

وحِكَم النسخ كثيرةٌ منها

١- مراعاة مصالح العباد بتشريع ما هو أنفعُ لهم، وأصلحُ لهم في دينهم ودنياهم.

٢- التّطور في التشريع حتى يبلغ الكمال.

٣- اختبار المكلّفين باستعدادهم لقبول التحول من حكمٍ إلى حكمٍ ورضاهم بذلك.

٤- اختبار المكلفين بقيامهم بوظيفة الشّكر إذا كان النّسخ إلى أخفّ، ووظيفة الصّبر إذا كان النّسخ إلى أثقل.

شبهات المنكرين لجواز النّسخ عقلاً

لا ريب أنّ المنكرين لجواز النسخ عقلاً منكرون لوقوعه شرعاً، وموقفهم أبعد المذاهب عن الحقّ وأوغلها في الباطل وشبهاتهم:

يقولون: لو جاز أنْ ينسخ الله سبحانه وتعالى حكماً لكان ذلك إمّا لحكمةٍ ظهرت له كانت خافيةً عليه، وإما عبثاً لغير حكمةٍ، وكلاهما باطلٌ، أمّا الأول: لتجويز البَداء والجهل بالعواقب على علّام الغيوب، وأمّا الثّاني: فلأنّه يستلزم تجويز العَبَث على الحكيم الخبير، وكلٌ منهما مستحيلٌ عليه سبحانه.

والجواب أنّ النّسْخ مبنيٌ على حكمةٍ معلومة له سبحانه، ولكنّ مصالح العباد تتجدّد بتجدّد الأزمان، وتختلف باختلاف الأحوال، والحكم الثّاني فيه حكمةٌ غير حكمة الأوّل، ولا يخلو عن ذلك أبداً.

يقولون: إنّ النّسْخ يستلزم اجتماع الضدّين: كونه حسناً وطاعةً ومحبوباً لله عندما كان مأموراً به، وكونه قبيحاً ومعصيةً ومكروهاً لله تعالى عندما كان منهياً عنه.

والجواب: بأنّ الحُسْن والقُبْح وما يتصل بهما متعلّقة بأمر الله ونهيه، فعندما كان مأموراً به فهو حَسَنٌ وطاعةٌ ومحبوبٌ لله، وعندما يَنْهَى عنه يكون قبيحاً ومعصيةً ومكروهاً لله.

شبهات المنكرين لوقوع النّسْخ شرعاً

إنّ ما يورده اليهود وغيرهم لا قيمة له البتّة:

١- شبهة اليهود (العنانية والشمعونية):

يقولون: إنّ التوراة التي أنزلها الله على موسى ﷺ لم تزل محفوظةً لدينا منقولةً بالتّواتر فيما بيننا، وقد جاء فيها: "هذه شريعةٌ مؤبّدةٌ ما دامت السّموات والأرض"، وجاء فيها "الزموا يوم السّبت أبداً"، وذلك يفيد امتناع النّسخ، لأنّ نسخ شيءٍ من أحكام التّوراة لاسيما تعظيم يوم السّبت إبطالُ ما عنده تعالى.

والجواب: إن امتناع نسخ شريعة موسى ﷺ على زعمهم لا تقتضي عدم نسخ الشّرائع قبلها وإبطال النّسخ، وما زعموه من حفظ التّوراة ليس له مستندٌ إلا كلامُهم، والأدلة متضافرةٌ على أنّ التّوراة الصّحيحة لم يعد لها وجود ومن ذلك:

١- نَسخة التوراة بأيدي السّامريين، تزيد في عمر الدّنيا ألف سنة، ونُسخة النّصارى تزيد ألفا وثلاثمائة.

٢- ومن ذلك أنّ نُسَخَ التّوراة التي بأيديهم تحكي أشياء عن الله وأنبيائه وملائكته ينكرها العقل ويمُجُّها الطّبع، من ذلك: أنّ الله ندم على إرسال الطّوفان إلى العالم، وأنّه بكى حتى رَمِدَت عيناه، وأنّ يعقوب صَارَعَه، وأنّ لوطاً شرب الخمر حتى ثَمِل وزنى بابنتيه، وهارون هو الذي اتّخذ العجل لبني إسرائيل ودعاهم لعبادته.

٣- التّواتر الذي سَمُّوه مكذوبٌ، ولو كان كذلك لاتّبعوا النّبيّ محمّد ﷺ حيث صفتُه موجودةٌ في التّوراة، والقرآنُ مصدّق للتّوراة، وعبد الله بن سلام وأضرابه دخلوا في الإسلام.

٤- التأبيد الذي ذُكر لا يدلُّ على التأبيد فإنّ التّوراة قالت عن البقرة: "هذه سنّةٌ لكم أبداً"، وقالت في القربان: "قرّبُوا كلّ يوم خروفين قرباناً أبداً"، وهذان منسوخان باعتراف اليهود أنفسهم.

وعلى كلّ حالٍ فإنّ كلمة (أبداً) عندهم مستعملة لا يُراد معناها، وهذا أخفّ ردٍّ، والحقيقة لا أصل لهذا الكلام.

٢- شبهة النّصارى:

يقولون: إن المسيح يقول: "السّماء والأرض تزولان، وكلامي لا يزول"، وهذا يدلّ على امتناع النّسْخ سمعاً.

والجواب:

١- لا نُسلّم بأنّ الإنجيل الذي بين أيديهم هو الإنجيل الذي أنزل على سيدنا عيسى عليه الصّلاة والسّلام، إنْ هو إلا قصّة تاريخيةٌ وضَعَهَا بعضُ النّصارى يبيّنُ فيها حياة المسيح وولادته ونشأته ودعوته، والأماكن التي تنقَّل فيها، والآيات التي ظهرت على يديه، ومواعظه ومناظراته.

٢- التناقض بين نُسَخِ الإنجيل يدلّ على عدم الصّحة.

جاء في إنجيل مَتَّى: "إلى طريقةِ أممٍ لا تَمْضُوا، ومدينةٌ للسّامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالجري إلى خراف بني إسرائيل الضّالّة".

وفي إنجيل مرقُص: "اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة"، فإمّا أنْ يحْكُمُوا ببطلان الإنجيل، أو يقرُّوا بأنّ النّصّ الثّاني ناسخٌ للأوّل، وقد قامت عليهم الحجّة.

شروط النّسْخ:

١- أنْ يكون هناك تعارضٌ ولا يمكن الجمع بين النّصين المتعارضين فإنْ أمكن الجمع فلا نسخٌ.

٢- أنْ يكون أحد النّصين متأخراً، فيكون ناسخاً وهذا يُعبّر عنه (معرفة النّاسخ).

ويُعرَف المتأخّر: بالنّصّ أو بقول صحابيٍّ أو بالتّاريخ.

فأمّا التّاريخ فكقوله تعالى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٦] فإنّها نسخت ما قبلها: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ﴾ [الأنفال:٦٥] الآية.

وكقوله تعالى: ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [البقرة:١٨٧] الآية.

وكقوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المجادلة:١٣] الآية فإنّها ناسخةٌ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة:١٢].

وأمّا قول الصّحابي فكقول السّيدة عائشة ﵂: "كان فيما أُنزل عشْر رضعات معلوماتٍ يُحَرِمْن، فنُسخت بخمسٍ معلوماتٍ"(١).

(١) رواه مسلم (١٤٥٢).

وأما النّصّ فكقوله ﷺ: "كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور فزوروها"(١).

وحديث: "كنتُ أَذِنْتُ لكم في الاستمتاع بالنّساء، ألا وإنّ الله حرّم ذلك إلى يوم القيامة"(٢).

٣- ثبوت النّاسخ، واشترط كثيرون أنْ يكون النّاسخ أقوى من المنسوخ، فلا يجيزون نسخ المتواتر بخبر الآحاد. وقال آخرون: إنّه لا يُشترط، لأنّ النّسخ محلّه الحكم، ويثبت الحكم بخبرِ الآحاد.

وأخيراً إنّ هناك ما يمتنع نسْخه

١- الأخبار لأنّ نسخ أحد الخبرين يستلزم الكذب في أخباره تعالى، وهو مستحيلٌ إلا إذا جاء الحكم على صورة الخبر(٣).

٢- الأحكام التي هي صالحةٌ في كلّ زمانٍ ومكانٍ، كأصول الاعتقاد، والشّرائع، والأخلاق كالصّدق والأمانة والوفاء والإخلاص، والصّلاة والصّيام والحجّ والزّكاة، فلا يمكن نسخ الأمر بها.

وكذلك تحريم الكذب، والزّنا، والسّرقة، وشرب الخمر، واللّواط، فلا يجوز نسخ النّهي عنها.

---

(١) رواه مسلم (٩٧٧).

(٢) رواه مسلم (١٤٠٦).

(٣) فيجوز نسخه مثل آية المصابرة، ومثل: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾، ومثل: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ على أن معناه النهي.

إعجاز القرآن

حكمة إعجاز القرآن: إظهار صدق محمّدٍ ﷺ في دعوى الرّسالة، بإظهار عَجْزِ العرب عن معارضته في معجزته الخالدة وهي القرآن الكريم، وعجز الأجيال بعدَهم.

والمعجزةُ أمرٌ خارقٌ للعادة مقرونٌ بالتّحدي سالمٌ من المعارضة يُظْهِرَهُ الله على يد رسوله.

إعجاز القرآن: أنْ يقوم القرآن في فم الدّنيا آيةً شاهدةً برسالة سيدنا محمّدٍ ﷺ، وأنْ يبقى على جبهة الدّهر معجزةً خالدةً تنطق بالهدى ودين الحقّ ظاهراً على الدّين كلّه، ويلزم من إعجاز القرآن أنّ هذا الكتاب حقٌّ والرّسول الذي جاء به حقٌّ.

وجوه الإعجاز كثيرةٌ ومختلفةٌ:

منها أسلوبه، ومنها طريقة تأليفه، ومنها علومه ومعارفه، ومنها وفاؤه بحاجات البشر، ومنها موقفه من العلوم الكونية، ومنها سياسته في الإصلاح، ومنها أنباء الغيب فيه، ومنها آيات العتاب، ومنها ما نزل بعد طول انتظار، ومنها آيات المباهلة، ومنها عجز الرّسول ﷺ عن الإتيان ببدلٍ منه، ومنها تأثير القرآن الكريم.

[لغته وأسلوبه]

فأمّا لغتُه وأسلوبُه فتلك الظّاهرة العجيبة التي امتاز بها في رصْف حروفه،وترتيب كلماته ترتيباً دونه كلّ ترتيبٍ تعاطاه النّاس في كلامهم، فإذا استمعتَ إلى حروف القرآن خارجةً من مخارجها الصّحيحة تشعر بلذّة جديدةٍ في رصْف هذه الحروف بعضها بجانب بعضٍ في الكلمات والآيات، هذا يُخفَى وهذا يُظهَر، وهذا يُهمس وهذا يُجهر، وُضعت كلّها على وجهٍ دقيقٍ محكمٍ أثارَ الانتباه واسترعَى الأسماع، وبقي سائداً على ألسنة الخلق في آذانهم، إذا سمعه الخاصّة والعامة أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه على قدْر استعدادهم وعواطفهم، يخاطِب العقل والقلب معاً، ويجمع الحقّ والجمال معاً، يهزّ القلوب هزّاً، ويمتّع العاطفة إمتاعاً،

استمع لقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]. فهذا الأسلوب البارع والجمال السّاحر يستقبل العقل والقلب بأنصع الأدلة في كلماتٍ معدوداتٍ.

تأمّل قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[يوسف:٢٣]. فانظر كيف قُوبلت دعاوي الغواية الثّلاث بدعاوي العفاف الثّلاث، مقابلةٌ صَوَّرَتْ من القَصَصِ الممتع جدالاً عنيفاً بين جند الرّحمن وجند الشّيطان، ووضعتها أمام العقل المنصف في كفتي ميزان.

جودةٌ في السّبك، وإحكامٌ في السّرد، بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وآياته وسوره مبلغاً لا يدانيه كلام.

براعةٌ في تعريف القول، وثروةٌ في أفانين الكلام، يُورد المعنى الواحد بألفاظٍ مختلفة وطرقٍ متعددةٍ.

خبرٌ يُراد به الإنشاء: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وإنشاءٌ يُراد به الخبر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢].

ولقد طاول القرآن العرب في المعارضة وتنازل لهم عن التّحدي بجميع آيات القرآن، بعد أنْ تحدّاهم بالقرآن كلّه فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

فتحدّاهم بحديثٍ مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور]، ثُمّ إلى عشرِ سورٍ مثلِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود:١٣]، ثمّ إلى سورةٍ مثلِه: ﴿إِن كُنتُمْ فِى

رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣]. فدُحِضَت حجّتهم، وافتُضِح أمرهم، وظهر أمر الله وهم كارهون.

ولقد همَّ قومٌ بالمعارضة فجاءوا بأمورٍ مضحكةٍ مخجلةٍ، فباءوا بغضبٍ من الله ورسوله وسُخْطٍ من النّاس.

زعم مسيلمة بأنّه أُوحيَ إليه وطَلَع إلى النّاس بهذا الهَذَر: "إنّا أعطيناك الجواهر، فصلّ لربّك وجاهر"، وبهذا السُّخفِ: "والطّاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً"، و "أيّها الضّفدع ما لكِ تُنَقنِقِين، رأسُك في الماء ورِجْلاك في الطّين".

ولقد همَّ بعض الكتّاب في العصر العباسي أنْ يُعارضوا القرآن فتكسّرت أقلامهم، وتمزّقت صحفهم، كما حصل لابن المقفّع فكتب ما كَتَبَ فسمع طفلاً يقرأ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٤٤] فَمَزَّقَ كلّ ما كَتب.

ولقد أنكر طه حسين إعجاز القرآن، وأنكر بعضُ الحُكّام العرب في العصر الحاضر إعجاز القرآن، فكان كلامهم هذا شتماً لهم وسَخِرَ منهم النّاس.

عجز العرب عن معارضة القرآن مع توفّر الدّواعي في كلّ العصور، وبقي القرآن معجزةً خالدةً.

وأمّا طريقةُ تأليفه

فقد نزل القرآن متفرقاً في مدّة ثلاثٍ وعشرين سنةً، فلم يكن فيه أيّ تنافرٍ، أو اختلافٍ، فدلّ ذلك على أنّه منزّلٌ من عند الله الذي يملك كلّ شيءٍ، وهو خالق كلّ شيءٍ، ويعلم كلّ شيءٍ، ويُدبّر كلّ شيءٍ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وأمّا علومُه ومعارفه

فقد قدّم للإنسانية مزيجاً صالحاً من عقيدةٍ صالحةٍ ترفعُ همّة العبد، وعبادةٍ قويمةٍ تطهّر نفس الإنسان، وأخلاقٍ عاليةٍ تُؤهّل المرء لأنْ يكون خليفة الله في الأرض، وأحكامٍ شخصيةٍ ومدنيةٍ واجتماعيةٍ تَكْفَل حماية المجتمع من الفوضى والفساد، وتضمن له حياة الطّمأنينة والنّظام والسّلام والسّعادة، يُوفّق بين مطالب الرّوح والجسد، ويؤلّف بين مصالح الدّنيا والدّين، ويجمع بين عِزِّ الدّنيا والآخرة، كلّ ذلك قصدٌ واعتدالٌ، وبراهينُ واضحةٌ مقنعةٌ تُبْهِرُ العقل وتملك العاطفة.

وأمّا وفاؤُه بحاجات البشر

في كلّ عصرٍ ومعه وفاءٌ لا يظفر به في أيّ تشريعٍ، إصلاحُ العقائد والعبادات والأخلاق، وإصلاحٌ اجتماعيٌّ، عن طريقِ إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم، ومحو العصبيات وإزالة الفوارق التي تُباعد بينهم، وذلك بإشعارهم بأنّهم من آدم وآدم من ترابٍ، وأنّهم خُلقوا من ذكرٍ وأنثى لا فضْل لأبيضَ على أسودَ، ولا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلا بالتّقوى، وأنّهم متساوون أمام الله ودينه وتشريعه، متكافئون في الحقوق والتّبعات من غير استثناءاتٍ ولا امتيازاتٍ.

وأنّ الإسلام عقدُ إخاءٍ بينهم أقوى من إخاءِ النّسب والعَصب، وأخبرهم بأنّهم أمّةٌ واحدةٌ يؤلّف بينها دين الله، ولا تفرقها الحدود الإقليمية، ولا الفواصل السّياسية: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥٢] ودعا إلى إصلاح الحُكم والسّياسة والاقتصاد، ودعا إلى حماية المرأة واحترامها وإعطائها المكانة اللائقة بها، ودعا إلى تهذيب النّفوس وتحرير العقول والأفكار.

وأمّا إشاراتُه إلى العلوم الكونية

فلم يجعلها من مواضيعه ولكنه دعا إليها: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١] وذكرها بأسلوب جميل جداً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر:٤١].

وتعرّض لها بأسلوب التدليل على قدرة الله وعظمته: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

وصرّح بتعدد الأرضين بأسلوب جذّاب: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾[الطلاق:١٢] ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [ياسين].

وكَثْرَةُ الإشارات دعت بعض العلماء لأنْ يخصّصوا قسماً كبيراً من وقتهم لدراستها واستنباط أشياء عظيمة منها في هذا المجال.

وأمّا أنباءُ الغيب فيه

فمنها قصصٌ عَبْرَ الماضي البعيد الذي لا سبيل لمحمّدٍ ﷺ للاطّلاع عليه، كقصّة نوحٍ وموسى، وكقصّة مريم.

وقصصٌ عن الحاضر الذي لا سبيل لمحمّدٍ ﷺ لرؤيته ومعرفته إلا عن طريق الوحي.

وقصصٌ عن المستقبل الذي لم يقع، كإخبار الله عن نصر الروم في المستقبل على الفرس، وكإخباره عن دخول المسجد الحرام آمنين محلّقين رءوسَهم ... الخ.

وذِكْرُ عمّا وراء الطّبيعة من السّموات والعرش والكرسي واللّوح والقلم وسدرة المنتهى.

وذِكْرُ ما وراء الموت من البعث والحساب والميزان والصّراط والجنّة والنّار.

ومنه ما فضح الله به المنافقين.

وأمّا سياستُه في الإصْلاح

فالقرآن انتهج طريقاً عجباً في إصلاحه، وسلك سياسةً حكيمةً وَصَلَ بها من مكانٍ قريب إلى ما أراد من هداية الخَلْق، فتذرّع بجميع الوسائل المؤدّية إلى نجاح هذا الإصلاح الوافي بكل حاجاتِ البشر، مما يدلّ على أنّ القرآن في سياسته هذه لا يمكن أنْ يصدر إلا من الله. وبيان ذلك:

١- مجيء هذا الكتاب منجماً، بُعْداً بالنّاس عن الطّفرة، وتيسيراً لتلقيهم إيّاه وقبولهم ما جاء به.

٢- مجيء هذا الكتاب بذلك الأسلوب الشيّق الرائع الحبيب إلى قلوبهم، حتّى يُقبِلوا عليه ويأنَسوا بتعاليمه.

٣- تكرار ما يستحق التّكرار من الأمور المهمة، حتى يجد سبيله إلى النّفوس، فتُسلّم له القياد، مثل عقيدة التوحيد، واستئصال شأفة الشّرك بوساطة الحديث عنها مراراً وتكراراً.

٤- مخاطبة العقل ودعوته إلى إعمال النّظر وذمّ التقليد الأعمى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠]، ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

٥- دعوته إلى اتّخاذ الأسوة الحسنة: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]، ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب:٢١]، ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران:٣١]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠].

٦- نأى بهم عن الظّلم والبغي، وذهب بهم إلى العدل والحقّ والخير، ووعدهم على ذلك الخلود والبقاء: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا﴾ [الإنسان:٢٠] وهكذا دخل القرآن على النّاس من أبوابٍ كثيرةٍ حتى أصبح أتباع القرآن أعلى نماذج في المجتمع.

٧- مجيئه بمطالب الروح والجسد بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، ومطالب الدّنيا والآخرة.

٨- مجيء القرآن بالتّيسير ورفع الحرج عن الناس: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج:٧٨] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وأمّا آيات العتاب:

حيث يعاتب الله رسولَه على إذنه للمنافقين في التخلّف عن عزوة تبوك: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وكذلك عاتبه على فداء أسرى بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾ [الأنفال].

وكذلك عاتبه في ابن أمّ مكتومٍ حيث جاء إلى النّبيّ ﷺ وقال للنّبيّ ﷺ: "علّمني ممّا علّمك الله". والرّسول ﷺ كان عنده أشرافٌ من قريشٍ ويطمع في إسلامهم فلم يردّ عليه ولم يلتفت إليه، فنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١﴾ [عبس].

فهل يعقل عاقلٌ بعد هذا أنْ يكون القرآن من عند محمّدٍ ﷺ.

وأمّا ما نزل بعد طول انتظارٍ فآياتٌ كثيرةٌ، منها

١- حادث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة:

نزل فيه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤] فقد كان رسول الله ﷺ متحرق الشّوق إلى تحويل القبلة، ومن أجل ذلك كان يُقَلِّب وجْهَهُ في السّماء تلهفاً إلى نزول الوحي، ولقد طال الأمر ثمانية عَشَرَ شهراً وهو يستقبل بيت المقدس فلو كان الأمرُ له لأَنْهَاهُ حالاً.

٢- حادثة الإفك:

وهي من أخطر الأحداث، وأشنعها، ويتصل بِعِرْضِ رسول الله ﷺ، وعِرْضِ صديقه أبي بكر ﷺ، واتّهام أعلم امرأة، وأحبّ زوجاته إليه ﷺ، ولقد مضى عليه قرابة أربعين يوماً حتى نزل الوحي، ولو كان الأمر له لما انتظر ساعةً واحدةً.

٣- حادثة الأسئلة:

التي اتّفق عليها رجال قريش مع اليهود إنْ أجابها فهو نبيٌّ وإلا فلا.

عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الرّوح، فلم ينزل الوحي إلا بعد خمسةَ عشرَ يوماً، وقد وَعَدَ ﷺ أنْ يجيبَ عليه غداً، وقد شُقّ على النّبيّ ﷺ هذا الإبطاء، وكذّبته قريشٌ وقالوا: "ودَّعه ربه وقَلَاه إلى غير ذلك"، فنزل الوحي بعدها مبيناً لها، ثمّ نزل بعد هذا الإبطاء والتمهل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[مريم: ٦٤]. فهذه وغيرها تدل دلالةً واضحة على إعجاز القرآن، وأنّه من عند الله، وتدلّ أيضاً على صدق محمّدٍ ﷺ في رسالته وأنّه رسول الله ﷺ.

وأمّا آية المباهلة مع وفد نجران

لما دعاهم ﷺ إلى المباهلة قالوا: "حتّى ننْظُر"، فقال العاقب [وكان صاحب رأيهم]: "والله لقد عرفتُم يا معشر النّصارى أنّ محمّداً نبيٌّ مرسلٌ، وما باهل قومٌ قطّ نبياً فعاش كبيرهم، ولا نَبَتَ صغيرهم، ولئن فعلتُم لتهلكنّ، فَوادِعُوا الرّجل وانصرفوا إلى بلادكم"، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً للحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليٌّ خلفها وهو يقول: "إذا أنا دعوتُ فأمّنوا" فقال أسقف نجران: "يا معشر النّصارى إنّي لأري وجوهاً لو سألوا الله أنْ يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلَكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيٌّ". فقالوا: "يا أبا القاسم، رأينا أن لا نباهلك، فصالحهم النّبيّ ﷺ على ألفي حلّة كلّ سنةٍ، فقال: "والذي نفسي بيده إنّ الهلاك قدْ تدلّى على أهل نجران، وَلَوْ لَاعَنُوا لمسِخوا قردةً وخنازير"(١).

وأمّا عَجْز الرّسول ﷺ عن الإتيان ببدلٍ له:

فيكفي قوله تعالى:﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس].

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه محمّداً ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢].

وبالاختصار القرآن معجزٌ بكلّ ما يتحمله هذا اللّفظ من معنىً، فهو معجزٌ بألفاظه وأسلوبه، والحرف الواحد منه في موضعه من الإعجاز الذي لا يغني عنه غيره في تماسك الكلمة. والكلمة في موضعها من الإعجاز في تماسك الجملة، والجملة في موضعها من الإعجاز في تماسك الآية.

(١) رواه الحاكم في المستدرك بمعناه (٤١٥٧).

ولقد سمع أعرابيٌّ قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤] فسجد فقيل: "لماذا سجدت؟" قال: "سجدت لفصاحته".

وسمع الوليد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠] فقال: "إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسْفله لمغْدِقٌ، وإنّ أعلاه لمثمرٌ، سبحان الله ما يقول هذا بشرٌ".

وهو معجزٌ في بيانه ونظمه، وهو معجزٌ في معانيه التي كشفت السّتار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها في الوجود، يجد فيه القارئ صورة للحياة والكون والإنسان.

وهو معجزٌ بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيراً من حقائقها.

وهو معجزٌ في تشريعه، وصيانته لحقوق الإنسان، وإعداد مجتمع مثالي تسعد الدّنيا على يديه، وبفضل القرآن الكريم صار رُعاءُ الشّاءِ ساسةَ شعوبٍ، وقادةَ أُممٍ، وهذا وحده إعجاز.

وأخيراً

القدْرُ المعجزُ من القرآن لا يتعلّق بسورةٍ بل ولا آيةٍ ولا قدرٍ معيّن، بل نجده في أصواتِ حروفه، ووقْع كلماته، كما نجده في السّورة والآية، فالقرآن كلام الله وكفى.

وأخيراً: يجدر بنا أنْ نأتيَ بكلمةٍ عن النّواحي الثّلاثة: ناحية الإعجاز اللغوي، وناحية الإعجاز العلمي، وناحية الإعجاز التشريعي.

الإعجاز اللغوي:

لقد كان أكبر سلاح عند العرب بلاغَتَهم، وبلغُوا مبلغاً عظيماً، وعلّقوا المعلقات العشر في جوف الكعبة، ولما جاء القرآن وقفوا أمامه صاغرين، وتحداهم فكانوا صامتين.

الإعجاز العلمي:

القرآن كتاب تشريع، أشار إلى بعض الأمور الكونية وحثَّ على التفكير في خلق السّموات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار، وأمر الإنسان أنْ يفكّر في نفسه وفيما حوله ليستدلّ على

عظمة الله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾[الذاريات:٢١] ﴿أَوَ لَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾[الروم:٨]. ولا يزال بعض العلماء يتتبّعون الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وأتوا بالعجب العُجاب، وكلّما تقدّم العلم فهو في خدمة القرآن.

الإعجاز التشريعي:

عَني القرآن بإصلاح الفرد وإصلاح الجماعة، وربط بينهما، فصلاح الفرد من صلاح الجماعة، وصلاح الجماعة من صلاح الفرد، وعَني بتربية الأسرة، وأقام نظام الحكم على الشّورى والمساواة والعدل، وصان الكليات الخمس: النّفس والدِّين والعرْض والمال والعقل.

وبالختام نقول: القرآن دستورٌ تشريعيٌّ كاملٌ يُقيم الحياة على أرقي صورةٍ.

أسلوب القرآن الكريم

الأسلوب هو: الطّريقةُ الكلاميةُ التي يسلكُها المتكلّم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه.

أسلوب القرآن الكريم هو: طريقتُه التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه.

والأساليب مختلفةٌ باختلاف المتكلمين من ناثرين وناظمين مع أنّ المفردات التي يستخدمها الجميع واحدةٌ، والتراكيب في جملتها واحدةٌ، وقواعدُ صَوغ المفردات وتكوين الجمل واحدةٌ. فالقرآن الكريم لم يخرج من معهود العرب في لغتهم العربية، من حيث ذواتُ المفردات والجمل وقوانينها، بل جاء كتاباً عربياً جارياً على مألوف العرب من هذه النّاحية، فمن حروفهم تألّفت كلماته، ومن كلماتهم تألّفت تراكيبه، وعلى قواعده العامة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفُه.

ولكنّ المعجِزَ والمدهشَ أنّه مع دخوله على العرب من هذا الباب الذي عهدوه، ومع مجيئه بهذه المفردات والتراكيب التي تَنافسُوا في حَلَبَتِها، وبلغوا الأعلى فيها، قد أعْجَزَهُم بأسلوبه الفذِّ.

ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه لأمكن أنْ يُلْتَمَسَ عذرٌ، أو شبه عذْرٍ، وأنْ يسلمَ لهم طعنٌ، أو شبه طعنٍ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت:٤٤].

ولهذا المعنى وصف الله كتابه بالعربية في غير آيةٍ فقال جلّ ذكره في سورة يوسف: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

وقال في سورة الزّمر: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزّمر:٢٨].

ومفردات اللّغةِ العربية فيها ما هو متآلفٌ في حروفه، ومتنافرٌ، وواضحٌ مستأنسٌ، وخفيٌّ غريبٌ، ورقيقٌ خفيفٌ على الأسْماع، وثقيلٌ كريهٌ تمجّه الأسماع، وموافقٌ لقياس اللّغة ومخالفٌ له، ومنها ما هو عامٌّ وخاصٌّ، ومطلقٌ ومقيّدٌ، ومُجملٌ ومُبيّنٌ، وحقيقةٌ ومجازٌ.

وكذلك تراكيب اللّغة العربية، منها ما هو حقيقةٌ ومجازٌ، ومنها ما هو متآلفُ الكلمات، ومتنافرُها، وواضح المعاني، ومُعَقَّدها، وموافقٌ للقياس اللّغوي، ومنها الاسميةُ، والفعليةُ، والخبريةُ، والإنشائيةُ، وفيها النّفيُ، والإثباتُ، والإيجازُ، والإطنابُ، والتّقديمُ والتّأخيرُ، والفصْلُ والوصلُ، والأمر يرجع إلى حسن الاختيار بحسَب ما يناسب الأحوال والمقامات.

فخطابُ الأذكياء غيرُ خطاب الأغبياء، وموضوعُ العقائد غيرُ موضوع القَصص، وميدانُ الجدل الصّاخب غيرُ مجلس التّعليم الهادئ، ولغةُ الوعد والتبشير غيرُ لغة المواعيد والإنذار.

والقرآن الكريم كتابُ الله الذي أحاط بجميع أحوال الخلق والذي يعلم السّرّ وأخفى، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الفرقان:٦]، ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه:٤]، فهو صالحٌ لمخاطبة كلّ الأجيال، وتنبيهِ كلّ الغافلين في كلّ عصرٍ وفي كلّ مكانٍ.

من أساليب القرآن الكريم

التّوكيد

التّوكيد أربعةُ أنواعٍ

التّوكيداللّفظي، والتّوكيد المعنوي، وتأكيد الفعل بمصدره، والحال المؤكّدة.

١- **التّوكيد اللّفظي**: هو تكرار اللّفظ الأوّل إمّا بمرادفه وإمّا بلفظه.

فمن المرادف: ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:٢٠]، ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]، ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر:٢٧].

واللّفظي يكون في: الاسم والفعل والحرف والجملة:

فالاسم نحو: ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:١٥-١٦].

والفعل نحو: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١٧].

واسم الفعل نحو: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:٣٦].

والحرف نحو: ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود:١٠٨]، ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون:٣٥].

والجملة نحو: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الانشراح]. والأكثر اقتران الثّانية بثُمّ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾ [الانفطار:١٧]، ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر].

ومن هذا النّوع تأكيد الضّمير المتّصل بالمنفصل نحو: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥]، ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة:٢٤]، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥].

ومنه تأكيد المنفصل بمثله نحو: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [هود:١٩] وفائدته رفع توهّم المجاز في المسند إليه.

٢- **التّوكيد المعنوي**: بـ (كلٍّ) و(أجمعَ) و(كلّاً) و(كلتا)، وفائدته رفع توهّم المجاز، وعدم الشّمول في المسند إليه.

ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر:٥٩] والمعنى أنّهم اجتمعوا في الهلاك، وأنّ قوم موسى اجتمعوا في النّجاة.

ومنه قوله: ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [يوسف:٩٣] يعني لا يتخلّف منهم أحدٌ.

ومنه قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ [الحجر:٣٠] فـ (كلّهم) أفادت الإحاطة والشّمول، و(أجمعون) أفادت اجتماعهم في السّجود، ووقع خلافٌ هنا في أنّ إبليس من الملائكة أم لا؟ والتّحقيق أنّه ليس منهم (عنصراً)، ففي صحيح مسلمٍ: "خُلقت الملائكة من نورٍ، وخُلِقَت الجانّ من النّار، وخُلق آدم مما وُصف لكم"[(١)]، وهو منهم حكماً لدخوله في الخطاب بالأمر بالسّجود معهم، ولو كان من غيرهم لم يدخل معهم.

٣- **وتأكيد الفعل بمصدره**: وهو عوضٌ عن تكرار الفعل مرتين، وفائدته رفع توهّم المجاز في الفعل.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [النّساء:٦٥]، ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠﴾ [الطور]، ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النّمل:٨٨]، ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الحاقّة:١٤]، ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ [يوسف:٥]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النّساء:١٦٤]، وليس منه قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب:١٠] لأنّ الظّنون جمع ظنٍّ لاختلاف أنواعه.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

والتّأكيد بالمصـــدر تارةً يجيء من لفظ الفعل، وتارةً يجيء من مرادفه كقوله تعالى: ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ [نوح:٨] ويحتمل أنْ يكون منه: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا﴾ [النّساء:٢٠].

والأصل في هذا النّوع أنْ يُنْعَت بالوصف المرادف نحو: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١]، ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٨]، وقد يُضاف وصفه إليه نحو: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]، وقد يؤكّد بمصدرٍ فعلٍ آخرَ، أو اسم عينٍ نيابةً عن المصـــدر نحو: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:٨]، ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] ومثله: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤٣].

وقد يكون التّأكيد به لمعنىً، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النّمل:٨٨] لأنّ ذلك صنع الله سبحانه وتعالى.

ومثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم:٤] لأنّ هذا وعد الله.

ومثل قوله تعالى:﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٢٣ *وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ﴾ [النساء].

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣٧ صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٣٧].

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزّمر:٣].

وقد يجيء التّأكيد به مع حذف عامله كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمّد:٤].

٤- **والحال المؤكّدة:** وهي الآتية على حالٍ واحدةٍ، وهي لتأكيد الفعل، وسُميت مؤكّدة لأنّها تُعلم قبل ذكْرها فيكون ذكرها توكيداً.

كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٣]، ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠]، ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ [النساء:٧٩]، ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣]، ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق:٣١].

وليس منه قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ [النمل:١٠] لأنّ التولية قد لا تكون إدباراً بدليل قوله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤] وليس منه قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ [النمل:١٩]، لأنّ التبسُّم قد لا يكون مضحكاً.

أدوات التّوكيد

مؤكدات الجملة الاسمية[1]:

١) **(إنَّ)** نحو: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [فاطر:٥]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، قال عبد القاهر في دلائل الإعجاز: " التوكيد بها أقوى من التّوكيد باللام"[2]، وأكثر مواقع (إنَّ) بحكم الاستقراء هو الجواب، بشرط أنْ يكون للسّائل فيه ظنّ.

وقد يجيء مع التأكيد تقدير سؤال السّائل، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١] أمرهم بالتقوى ثم علّل وجوبها مجيباً لسؤال مقدّرٍ بذكر السّاعة، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧] أي لا تَدْعُنِي في شأنهم لأنهم محكومٌ عليهم بالإغراق.

ومثله النّهي عن الدّعاء لمن وجبت شقاوتُه، قال تعالى: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، وقوله تعالى:﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣].

٢) **(أَنَّ)**، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤] وهي حرف مؤكّد كـ (إنّ) المكسورة.

٣) **(كأنّ)** في تأكيد التشبيه، قال تعالى على لسان بلقيس: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل:٤٢]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦].

٤) **(لكنَّ)** في تأكيد الاستدراك

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٤٠٧/٢).

(٢) دلائل الإعجاز للجرجاني (ص٢٤٣).

٥) (**ليتَ**) في تأكيد التمنّي.

٦) (**لعلّ**) في تأكيد الترجّي.

٧) (**لام الابتداء**)، نحو: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩] وهي تفيد تأكيد مضمون الجملة ولهذا زحلقوها في باب (إنّ) عن صدر الجملة كراهةَ ابتداء الكلام بمؤكّدين، ولأنّ (إنّ) تدلّ بجهتين: العمل والتأكيد، بينما اللام تدل بجهةِ التوكيد فقط، وإذا جاءت اللام مع (إنّ) كان بمنزلة تكرار الجمل ثلاث مراتٍ.

٨) (**ضمير الفصل**)، وهو من مؤكّدات الجملة نصّ على ذلك سيبويه، كقوله تعالى: ﴿جِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ [المزمل:٢٠]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران:١٨٠]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٦]، ﴿إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال:٣٢].

٩) (**ضمير الشّأن**)، ويقدّمونه قبل الجملة نظراً لدلالته على تعظيم الأمر في نفسه كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، ومنه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩]، ومنه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الحج:٤٦]، ومنه: ﴿أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧].

١٠) **تصدير الجملة بضميرٍ مبتدأٍ هو فاعلٌ للفعل بعده أو شبهه** كما في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء:٢١]، ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

١١) **التنبيه في النّداء**، نحو: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ فكأنّه كُرّرت (يا) مرتين.

١٢) (**إمّا**) **المكسورة**، كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة:٣٨] أفهمه كلام الزّجاج.

١٣) (**أمَّا**) **المفتوحة**، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:٢٦].

١٤) (**ألا**) **الاستفتاحية**، كقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة:١٢]، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

١٥) (**ما**) **النافية**، نحو: ما زيدٌ قائماً.

مؤكدات الجملة الفعلية:

(قد، السّين، سوف، النّون المشدّدة، النّون المخفّفة، لا النافية، لن، لما).

١- (قد) حرف تحقيق، وهو في معنى التأكيد، تدخل على الماضي، منه: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١]، وقال بعض النّحاة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف:٥٤] بأنّ (قد) في الجملة الفعلية المجاب بها القسم، مثل إنّ واللام في الجملة الاسمية المجاب بها في إفادة التوكيد.

وتدخل على المضارع نحو: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ [الأنعام:٣٣]، ونحو: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦٤] ومع المضارع تأتي للتقليل.

٢- (**السّين**) التي للتنفيس قال سيبويه: في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٣٧] "معنى السّين أنّ ذلك كائنٌ لا محالة وإنْ تأخر إلى حين". وكذلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٧١] تفيد وجود الرحمة لا محالة، ونحوه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] ومثلها: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥]. العطاء كائنٌ لا محالةَ وإنْ تأخّرَ.

٣- (**النون الشّديدة**) وهي بمنزلة ذكر الفعل ثلاث مراتٍ، وبالحقيقة فهي بمنزلة ذكره مرتين، ووقع التّأكيد بالخفيفة في موضعين، ﴿وَلَيَكُونَا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف:٣٢]، ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ [العلق:١٥].

٤- (**لن**) في تأكيد النّفي كإنْ في تأكيد الإثبات فتقول (لَآ أَبْرَحُ)، فإذا أردت تأكيد النفي قلت: لن أبرح ولا تفيد تأبيداً ولا عدمه.

تنبيهٌ

المخاطب له ثلاثة أحوال:

أ. أن يكون خالي الذّهن من الحكم والتردّد فيه فَيُلقَى إليه الخبر خالياً من كلّ تأكيدٍ، ويُسمّى الخبر حينئذٍ **ابتدائياً**.

ب. أن يكون متردّداً فيه طالباً لمعرفته فيحسن أنْ يؤَكَّدَ له الخبر، ويُسَمَّى الخبر حينئذٍ **طلبياً**.

ج. أن يكون منكِراً له فيجب توكيده بمؤَكّدٍ أو أكثر على حسب درجة الإنكار، ويُسمّى الخبر حينئذٍ **إنكارياً**.

كقوله تعالى في حكاية عن رسل عيسى إذ كذبوا في المرة الأولى: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ [ياسين:١٤] فأكَّد بإنَّ واسمية الجملة. وفي المرة الثانية: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ [ياسين:١٦] فأكد بالقسم وإنَّ واللام واسمية الجملة، مبالغةً للمخاطبين في الإنكار.

أسلوب التّكرار

التّكرير مصدر كَرَّر، وتكرير الشّيء: إعادته مراراً، واسم المصدر التّكرار.

ويعيب البعض التّكرار في الكلام بحجّة أنّهُ تَمُجُّهُ الأسماعُ، ويسبق إلى أذهان الكثيرين هذا المعنى، والحقّ أنّ هذا ليس على إطلاقه، فالبلاغة: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحة كلماته، فلكلّ مقامٍ مقالٌ. فعندما يكون المقام مقتضياً للتّكرار فالبلاغة هي التّكرار، وعندما لا يكون المقام مقتضياً لذلك يصبح التّكرار غير بليغٍ.

وقد ذهب بعض المفترين من أعداء الإسلام إلى النّيل من بلاغة القرآن الكريم بوجود التّكرار فيه، وَدَفَعَهُم إلى ذلك الحقدُ على الإسلام والبغي والعدوان، وقد يكون الجهل باللّغة العربية وأساليبها سهَّلَ لهم ذلك وجرَّأهم عليه. ولكنّ المنصفين من هؤلاء اعترفوا بعظمة القرآن الكريم من حيث اللّفظُ والأسلوبُ، وبخاصّةٍ مَن اطَّلع على اللّغة العربية وأساليبها. والقرآن الكريم قال فيه سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢] إذْ هو قمةٌ في الفصاحة والبلاغة، والتّكرارُ الذي جاء فيه متعةٌ يتذوقها من شمَّ اللّغة العربية وَعَرَفَ أساليبَها، والتّكرارُ استعمله النّبيّ ﷺ، وهو سيد الفصحاء والبلّاغ، فقد كان يكرّر الكلام ثلاثاً ليكون: أبلغ في التذكير، وأقوى في الحجّة، وأوضح في البيان.

وقد قال الحسن بن الفضل –من كبار علماء السّلف–: "التّكرير طردٌ للغفلة وتأكيدٌ للحجّة".

والتّكرار قد يكون إعادة اللّفظ ولكن بمعنىً آخرَ، فهذا يُظن أنّه تكرارٌ وليس بتكرارٍ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨]. قال الرّاغب: الكتاب الأوّل: ما كتبوه بأيديهم المذكور في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ

لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩]. والكتاب الثاني: التوراة. والكتاب الثّالث: لجنس كتب الله كلِّها.

ومن أمثلة ما يظهر أنَّه تكرارٌ وليس منه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾ [الكافرون] أي في الحال، فالحاصل نفي عبادته لآلهتهم في الأزمنة الثّلاثة: الماضي والحال والمستقبل.

وكذا قوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة:١٩٨] فإنّ المراد بكلّ واحدٍ من الأذكار غير المراد بالآخَر، فالأوّل الذّكر في مزدلفة.

ومن ذلك تكرير الأمثال: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ [فاطر] يتدرج بالسّامع من حالٍ إلى حالٍ.

وفي تكرير القصص كقصّة آدم، وموسى، ونوحٍ، وغيرهم من الأنبياء، وذُكر في ذلك فوائدَ منها:

أ. إنّ في كلّ موضعٍ زيادة شيءٍ لم يُذْكَر في الذي قبلَه، أو بدَّلَ كلمةٍ بأخرى لنكتةٍ وهذه عادة البلغاء.

ب. إنّ الرجل كان يسمع القصّة من القرآن ثمّ يعود إلى أهله، ثمّ يهاجر بعده آخرون يَحْكُون ما نزل بعد رجوع مَن تقدمهم، فلولا تكرار القصص لوقعت قصّة موسى لقومٍ، وقصّة عيسى إلى آخرين، وكذا سائر القصص. فأراد الله اشتراك الجميع فيها فيكون فيه إفادةٌ لقومٍ وزيادةُ تأكيدٍ لآخَرين.

ج. وفي إبراز الكلام الواحد في فنونَ كثيرةٍ وأساليب مختلفة ما لا يَخْفَى من الفصاحة.

د. إنّ الدّعاوى لا تتوفر على نقلها كتوفّرها على نقل الأحكام، فلهذا كُرِرت القصص دون الأحكام.

هـ. إن الله تعالى نزَّل هذا القرآن وعجزَ القومُ عن الإتيان بمثله، ثم أوضح الأمر في عجزهم بأنْ كَرَّر ذكر القصّة في مواضع إعلاماً بأنّهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأيّ نظمٍ جاء وبأيّ عبارةٍ عبَّروا.

و. إنّه لما تحداهم قال: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣] فلو ذُكِرَتْ القصّة في موضعٍ واحدٍ واكتفى بها لقال العربي: ائتونا أنتم بسورةٍ من مثله، فأنزلها سبحانه وتعالى في تعداد السّور دفعاً لحجّتهم من كلِّ وجْهٍ.

ز. ظهور الأمر العجيب في إخراج المعنى الواحد في صورٍ متباينةٍ في النَّظْم وجَذْبِ النّفوس إلى سماعها، لما جُبِلت عليه النّفوس من حبّ التنقّل في الأشياءَ المتجددة واسْتِلْذَاذِها بها.

ح. لأنّ المقصود بها إفادة إهلاك مَن كذَّبوا رسلَهم، والحاجة داعية لذلك لتكرير تكذيب الكفار لرسول الله ﷺ، ولهذا لم تكرر قصّة يوسف، ولا أصحاب الكهف، ولا ذي القرنين، ولا موسى ولا الخضر ولا قارون.

ومن فوائد التكرير:

١- التقرير: وقد قيل الكلام إذا تكرّر تَقَرَّرَ، وقد نبّه تعالى على السّبب الذي لأجله كرّر القصص والإنذار في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:١١٣].

٢- التأكيد: مثل سورة الكافرون.

٣- زيادة التنبيه على ما ينفي التّهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول، ومنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ [غافر:٣٨] فإنه كرّر فيه النّداء لذلك.

٤-إذا طال الكلام وخُشِيَ تناسي الأوّل أُعيد ثانيةً تجديداً لعهده، ومنه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٩]،

ومنه ما وقع الفصل فيه بين المكررين، ومنه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر:١٨].

٥- التعظيم والتهويل ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾ [الحاقة]، ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢﴾ [القارعة]، ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ [الواقعة:٨].

٦- ما كان لتعدّد المتعلَّق، بأن يكون المكرّر ثانياً متعلّقاً بغير ما تعلّق به الأوّل وهذا يُسمى بالترديد، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ [النور:٣٥] وقع فيها الترديد أربع مراتٍ.

٧- ومنه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن]، وإن تكررت نيفاً وثلاثين مرةً فكلّ واحدةٍ تتعلّق بما قبلها، كرّر سبحانه هذه الآية في هذه السّورة تقريراً للنّعمة.

وكذلك قوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ في سورة المرسلات، لأنّه تعالى ذكر قِصصاً مختلفةً وأتبع كلّ قصّةٍ بهذا القول، فكأنّه قال عقب كلّ قصّةٍ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه القصّة.

وكذلك في سورة الشّعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٩﴾ كُرّرت ثماني مراتٍ، كلّ مرةٍ عَقِبَ كلّ قصّةٍ، فالإشارة في كلّ واحدةٍ بذلك إلى قصّةِ النّبيّ المذكور قبلَها، وما اشتملت عليه من الآيات والعِبَر.

وكذلك قوله في سورة القمر: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ كرّر ليجدّدوا عند سماعِ كلّ نبأٍ فيها إيقاظاً وتنبيهاً، وأنّ كلاً من تلك الأنباء يستحقّ الاعتبار.

أسلوب التكرار في سورة الكافرون وَغيرها من الأمثلة

[سورة الكافرون]

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

هذه السّورة تُسمّى سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرةٌ بالإخلاص، وقد جاء في الحديث: "إذا أَويتَ إلى فراشِك فاقرأ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ حتى تمرّ بآخرها فإنّها براءةٌ من الشّرك"(١).

وعن أنس بن مالك ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال لرجلٍ من أصْحابه: هل تزوجتَ يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج. قال: أليس معك "قل هو الله أحد"؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن. قال: أليس معك "إذا جاء نصر الله والفتح"؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن. قال: أليس معك "قل يا أيها الكافرون"؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن. قال: أليس معك "إذا زُلزلت الأرض"؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن. تزوَّجْ"(٢).

وجاء مختصراً في الترمذي أيضًا: "قل يا أيّها الكافرون" تعدل ربع القرآن، و"إذا زلزلت" تعدل نصفَ القرآن، "وقل هو الله أحد" تعدل ثلث القرآن"(٣).

وسبب نزولها: أنّ رهطاً من كفّار قريشٍ منهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السّهمي والأسود بن عبد المطلب وأميّه بن خلف لقوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمّدُ، هَلمَّ فلتَعْبُدْ ما نعبدُ، ونعبدُ ما تعبدُ، ونشترك نحن وأنتَ في أمرنا كلّه، فإن كان الذي جئتَ به خيراً ممّا بأيدينا كنّا قد شَرَكْنَاك فيه وأخذْنا بحظّنا منه، وإنْ كنّا الذي بأيدينا خيراً مما بيدك كنتَ قد شرَكَتَنا في أمْرنا وأخذْتَ بحظّك منه، فأنزل الله عزّ وجلّ سورة الكافرون"(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٠٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٩٥). وقال الترمذي هذا حديث حسن.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٩٤).

(٤) انظر: أسباب النزول للواحدي (٣٠٧/١).

وفي السّورةِ ثلاثةُ أقوالٍ:

القول الأوّل:

التّكرار هنا للتّأكيد، لقطع أطماع الكافرين حيث جاءوا يُسَـــاومون على العقيدة متوهّمين بأنّهم علي دينٍ، فَأَمَرَ الله ســـبحانه نبيَّهُ أنْ يخاطبَهم بأنّهم كافرون: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، فناداهم بحقيقتهم ووصـفهم بصـفتهم فلا لقاء معهم، انفصـالٌ لا يُرجى معه اتصـــال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فعبادتي غير عبادتكم ومعبودي غير معبودكم، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فعبادتكم غير عبادتي، ومعبودكم غير معبودي، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ تأكيدٌ للفقرة الأولى في صـيغة الجملة الاسمية، وهي أدلّ على ثبات الصّـفة واسـتمرارها، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ تكرارٌ تأكيدٌ للفقرة الثّانية كي لا تبقي مظنّةٌ ولا شـــبهةٌ. ثم أَجْمَلَ حقيقة الافتراق الذي لا التقاء معه، والانفصال الذي لا اتّصال فيه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ أنا هنا وأنتم هناك، مفاصـلةٌ كاملةٌ شـاملةٌ، وتميزٌ واضـحٌ. وقال أصـحاب هذا القول: في السّورة تحقيقٌ لوفاتهم على الكفر وأنّهم لا يُسلِمون أبداً وقد تحقَّق هذا.

القول الثّاني:

ليس هناك تكرارٌ فـــــــ (ما) بمعنى (الذي) في الفقرتين الأولتين، و(ما) مصـدرية في الأخيرتين، فكأنّه قال: لا أعبدُ معبودَكم، ولا تعبدون معبودي، ولا أعبد عبادتكم، ولا تعبدون عبادتي.

القول الثّالث:

ليس هناك تكرار، فالزّمان لا أعبد في الحال ما تعبدون، ولا أنتم عابدين ما أعبد في المستقبل.

ومن ذلك تكرار الأمثال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر] يتدرج به السّامع من حالٍ إلى حالٍ.

ومن ذلك تكرر حرف الإضراب، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء:٥].

قصّة يوسُف [وغيرها]:

لم تكرّر قصّة يوسف لأنّ الأغراض لا تتعلق بصراعٍ بين الحقّ والباطل، ولا تتعلّق بتكذيبِ الرّسل وإهلاك المكذبين، وإنّما أنزلت بناءً على طلب الصّحابة رضوان الله عنهم.

وكذلك قصّة أصحاب الكهف وقصّة ذي القرنين نزلت إجابةً للأسئلة التي وُجّهت لرسول الله ﷺ من قِبَل المشركين باتفاقٍ مع اليهود.

وقصّة قارون فرعٌ عن قصّة موسى عليه الصّلاة والسّلام.

وقصّة موسى والخضر كانت والله أعلم تربيةً لسيدنا موسى عليه الصّلاة والسّلام عندما سَئَل.

الحروف الزائدة:

قال ابن جنّي: "كلّ حرفٍ زِيدَ في كلام العرب فهو قائمٌ مقام إعادة الجملة مرّةً أخرى"(١).

الزّيادة في الحروف والأفعال قليلةٌ، والأسماء أقلّ:

أمّا الحروف فيُزاد منها: (إنْ، وأنْ، وإذ، وإذا، وأم، والباء، والفاء، وفي، والكاف، واللام، ولا، وما، ومن، والواو).

وأما الأفعال فزيد منها (كان) وخرج عليه: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩]، و(أصبح) وخرج عليه: ﴿فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٥٣].

وأمّا الأسماء فنصّ الأكثرون أنّها لا تُزاد، ووقع عن بعض المفسرين زيادة (مثل) في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة:١٣٧].

الأمثلة:

- (أَنْ) ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف:٩٦].
- (ما) ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩].
- (من) ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ [يونس:٣]، ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر:٣].
- (و) ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصّافات].
- (الباء) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨].
- (اللام) ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:٣٦].

(١) انظر: الجنى الداني في حروف المعاني (ص١٣).

تعريفٌ مجملٌ بأشهر المستشرقين
الذين أثاروا الشّبهات حول القرآن الكريم وعلومه.

التبشير:

هو إحدى الحركات الكبرى للغزو الفكري، وقد وضع خطّةً واسعةً للقضاء على العقائد والقيم والثّقافات الأساسية للعالم الإسلامي.

وقد أشار إلى ذلك زويمر في تقريره الذي نُشر في ١٢إبريل ١٩٢٦م يقول: "لقد جَرَّبْتُ الدّعوة إلى النّصرانية في أنحاءَ كثيرةٍ من الوطن الإسلامي، وإنّ تجاربي تخوّلني أنْ أقول: إنّ الطّريقة التي سرنا عليها لا توصلنا إلى الغاية التي نُنْشِدها، فقد صرفنا من الوقت كثيراً، وأنفقنا من الذّهب قناطير مقنطرةً، وألّفنا ما استطعنا أنْ نؤلّف، ومع ذلك فالذي نحاوله في نقل المسلمين إلى النّصرانية هو باللّعب أشبه منه بالجدّ. **وعندي أنّه قبل أنْ نبني النّصرانية في قلوب المسلمين علينا أنْ نهدم الإسلام في نفوسهم، حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سَهُل علينا أو على مَنْ بعدنا أنْ يبنوا النّصرانية في نفوسهم، إنّ عملية الهدم أسهل من عملية البناء في كلّ شيءٍ إلا في موضوعنا، لأنّ هدم الإسلام في نفس المسلم معناه هدم الدّين على العموم**".

ولعلّ هذا هو سرّ الحملات الضّخمة التي شنّها الفكر الغربي على الأديان، وهو يقصد بها أيضاً الحملة على الإسلام ذاته، ومن هنا نشأ ما أُطلق عليه (**حركة التغريب**) وهو تحويل المسلمين عن مقومات دينهم على مراحل، وخَلْق الشّبهات المختلفة أمامهم في ميادين الفكر والاجتماع، حتى يتخلّصوا تخلّصاً كاملاً من القيم الإنسانية لشخصيتهم الإسلامية وهذا ما وُصف بـ: (**الحرب الصّليبية الجديدة**).

ومن تلك الحملات: (ترجمة القرآن)، ومنهجهم في ذلك تحريف القرآن الكريم، وحذف ما لا يروقهم، وخلط الآيات القرآنية بأبياتٍ من الشّـــعر، وجعل الأحاديث النّبوية من كلام بعضهم، وإظهار القرآن بمظهر الخرافة والأساطير.

ويقول أحدهم (دوزي): "إنّ معظم آيات القران الكريم كُتبت بلغةٍ عربيةٍ تكاد تكون آيةً في الركاكة"!. وعمل البعض منهم على إثارة شبهاتٍ حول القرآن الكريم وعلومِه مثل: (جولد زيهر، وشاخت، وبلاسير) وغيرهم.

ومن جملة الذين درســـوا اللّغة العربية، ومِن أول مَن اعتني بها لا لهدفٍ علميٍّ ولكن للردّ على الإسلام على أساسِ تراجم لاتينية للقرآن (**برهان يعقوب رايسكه**) وهو ألماني، ولد في عائلةِ دَبَّاغٍ فقير في (١٧١٦) م في مملكة ساكسونيا، وحصل على الثانوية في الميتم المشهور بمدينو هاله، وبقى فيه أربع سنوات، وأخذه شوقٌ لا يُوصف لدراسة اللّغة العربية، وفي دراسته الجامعية شرع في دراسة اللّغة العربية وتفوق بالنّحو العربي، واشترى ما وجد آنذاك من الكتب العربية وهكذا.

ومن جملة هؤلاء مَن رحلوا إلى البلاد العربية بقصـــد الاطّلاع والعلم، وبقصـــد الكيد للإسلام وأهله، منهم (**يوليوس فيلها وزن**) ولد في مدينة هاملن في سكسونيا السفلى، على نهر الفيزر، وكان أبوه قسيساً لتلك البلدة الريفية، وأُتيح له الاتّصال بالشّعب بسبب مركز والده الدّيني، وتابع الدّراسة حتى أصبح دكتوراً في اللّاهوت، وانكبّ بكلّ قوته واهتمامه على تعلّم اللّغة العربية، والشّـعر العربي، والروايات العربية المتوارثة، والأحاديث، يُرجَع إلى ترجمته في كتاب صلاح الدين المنجد (المستشرقون الألمان).

أسماء أخطر المستشرقين وأهم كتبهم

جولد زيهر:

مجريٌّ، يهوديٌّ، ولد عام (١٨٥٠) م، اشتُهر خاصةً بدراساته في الفقه الإسلامي، والفِرَقِ الإسلامية، وفي علاقة اليهود بالإسلام، تعلّم بـــ بودابست، ثمّ انتقل إلى مراكز الاستشراق، ورحل عام (١٨٧٣)م إلى الشّرق الأدنى فزار سوريا وفلسطين ومصر، وله مترجمات منها: (فضائح الباطنية)، (اليهود)، (الأساطير عند اليهود)، (السّامري عجل الذهب)، (العقيدة والشّريعة في الإسلام). ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وزميله.

وما كتبه جولد زيهر يفضح الحقد الدّفين الكامن في قلوبهم قال: "فتبشير النّبيّ العربيّ ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارفَ وآراءَ دينيةٍ عرفها، أو استقاها بسبب اتّصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، التي تأثّر بها تأثّراً عميقاً، والتي رآها جديرةً بأنْ تُوقظ عاطفةً دينيةً حقيقيةً عند بني قومه".

وهذا قولٌ آثمٌ ردّدَ به هذا الحاقد ما زعمه المشركين منذ أربعة عشر قرناً، وردّ الله تعالى عليه في حينه. ويقول: "إنّ الرّسول نفسَه قد اضطر لتطوره الدّاخلي، وبحكم الظّروف التي أحاطت به تجاوز بعض الوحي القرآني إلى وحيٍ جديدٍ في الحقيقة، إلى أنْ ينسخ بأمر الله ما سبق أنْ أوحاه إليه".

شاخت[1]:

مسْتشرقٌ ألمانيٌّ، يُعتبر من أعلام المستشرقين المعاصرين الذين عكفوُا على دراسة التّشريع الإسلامي تحقيقاً وترجمةً وتأليفاً، وهو يوزف (جوزيف) شاخت ولد عام (١٩٠٢) م، تعلّم بجامعتي برسلاو وليبزخ، وتولى مناصب الأستاذية في عدّة جامعاتٍ ألمانيةٍ وأوربيةٍ وإسلاميةٍ، وفي عام (١٩٣٤) م انتُدب أستاذا زائراً لجامعة القاهرة، وبعد قيام الحركة النّازية هَجَر ألمانيا

(١) شاخت هو الذي حمل رسالة جولد تسهير في الدّس على الإسلام والكيد له وتشويه حقائقه.

وتولّى هذا المنصب بجامعة أوكسفورد عام (١٩٤٨) م، ثم في كولمبيا عام (١٩٥٧) م، ثم انتُدب أستاذاً زائراً بجامعة الجزائر (١٩٥٢) م.

تشمل منشوراته مع ترجمتها إلى اللّغة الألمانية كتاب (الحيل والمخارج للخصّاف)، ومن مؤلفاته: (الإسلام من مصادر إسلامية غير القرآن)، وأشهر كتبه: (أصول الفقه الإسلامي)[1]، و(تاريخ الفقه الإسلامي)، كما أسهم في دائرة المعارف الإسلامية في عديدٍ من موضوعاتها المتعلّقة بالشّريعة على أنّه كاتب مادة: (محمّد عليه السّلام).

ماكدونالد:

أمريكيٌّ، من أشدّ المتعصبين ضدّ الإسلام والمسلمين، يصدر في كتاباته عن روحٍ تبشيريةٍ متأصّلةٍ ضد الإسلام والمسلمين، من كبار محرري (دائرة المعارف الإسلامية). ومن كتبه: (تطور علم الكلام والفقه والنظرة الدستورية في الإسلام) صدر في سنة (١٩٠٣) م، ومن كتبه: (الموقف الدّيني والحياة في الإسلام) صدر في سنة (١٩٠٨) م.

نيكولسون:

كان من أكبر مستشرقي انجلترا المعاصرين، ومن محرري (دائرة المعارف)، تخصّص في التّصوف الإسلامي والفلسفة، وكان عضواً بالمجمع اللّغوي المصري، وهو من المنكرين على الإسلام أنّه دينٌ روحيٌّ، ويصفه بالمادية، وعدم السّمو الإنساني، ومن كتبه: (متصوفو الإسلام) صدر عام (١٩١٠) م، و(التاريخ الأدبي للعرب) صدر عام (١٩٣٠) م.

زويمر:

مشتشرقٌ مبشّرٌ، اشتهر بعدائه الشّديد للإسلام مؤسّس مجلة (العالم الإسلامي) الأمريكية التبشيرية، ومؤلّف كتاب: (الإسلام تحدٍّ لعقيدة) صدر عام (١٩٠٨) م، وتقديراً لجهوده أنشأ الأمريكيون وقفاً بإسمه لدراسة اللاهوت وإعداد المبشرين.

---

(١) موضوع رسالة الدكتوراه للشيخ أمين المصري.

غ. فون جرونبام:

من أصـــلٍ ألمانيّ، يهوديٌّ مســـتوردٌ إلى أمريكا للتدريس بجامعاتها، وكان أســـتاذاً بجامعة شـــيكاغو، من ألدّ أعداء الإســـلام، في جميع كتاباته تخبطٌ واعتداءٌ على القيم الإســـلامية والمسلمين، كثيرُ الكتابة، وله معجبون من المستشرقين ومن كتبه:

١- (إسلام العصور الوسطي)، صدر عام (١٩٤٦) م.

٢- (الأعياد المحمدية) صدر عام (١٩٥١) م.

٣- (محاولاتٌ في شرح الإسلام المعاصر)، صدر عام (١٩٨٧) م.

٤- (دراساتٌ في تاريخ الثّقافة الإسلامية)، صدر عام (١٩٥٤) م.

٥- الوحدة والتّنوع في الحضارة الإسلامية صدر عام (١٩٥٥) م.

ا. ج. أربري:

انجليزيٌّ معروفٌ بالتعصّـــب ضـــدّ الإســـلام والمســـلمين، ومن محرري: (دائرة المعارف الإسلامية)، أستاذٌ في جامعة كامبريدج، **من كتبه:**

١- (الإسلام اليوم) صدر عام (١٩٤٣) م.

٢- (مقدّمةٌ لتاريخ التّصوف)، صدر عام (١٩٤٧) م.

٣- (التّصوف)، صدر عام (١٩٥٠) م.

٤- (ترجمة القرآن) صدر عام (١٩٥٠) م.

بلاشير وماسينيون:

هما شـيخا المسـتشـرقين الفرنسـيين، كانا يعملان في وزارة الخارجية الفرنسـية كخبيرين في شئون العرب والمسلمين، وهما أشدّ ما يكونان حقداً علي العرب والمسلمين وعلى الإسلام.

وماسينيون كان عضواً في المجمع اللّغوي المصري، والمجمع العلمي في دمشق، والراعي للجمعيات التبشيرية في مصر، متخصّص في الفلسفة والتّصور الإسلاميّ[1].

أ. ج فينيسك:

عدوٌّ لدودٌ للإسلام وبنيه، كان عضواً بالمجمع اللّغوي المصري، ثم أُخرج منه على أثر أزمةٍ أثارها الدّكتور الطّبيب حسين الهواري مؤلف كتاب: (المستشرقون والإسلام)، صدر في سنة (١٩٣٦) م، وحدث ذلك بعد أنْ نشر فينيسك رأيه في القرآن والرّسول مدعياً أنّ الرسول ألّف القرآن من خلاصة الكتب الدّينية والفلسفية التي سبقته، فردَّ عليه الدكتور حسين الهواري في كتابه (المستشرقون والإسلام) ص ٧١ وما بعدها، ولفينسينك كتاب تحت عنوان: (عقيدة الإسلام).

دي مرجوليوث:

انجليزي، متعصب ضد الإسلام، ومن محرري (دائرة المعارف الإسلامية)، كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري، والمجمع العلمي في دمشق، ومن كتبه: (التطورات المبكرة في الإسلام) صدر عام (١٩١٣) م. و(محمّد ومطلع الإسلام) صدر عام (١٩٠٥) م، و(الجامعة الإسلامية) صدر عام (١٩١٢) م.

آرثر جيفري:

ولد في ملبورن باستراليا عام (١٨٩٢) م، درس في بجامعة ملبورن بإستراليا حيث نال شهادة البكالوريوس في العلوم الدينية (الإلهيات)، ودرجة الماجستير في الآداب، ودرجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة دانبة، كما حصل على دكتوراه أخرى في الآداب، وكان مهتماً بالدراسات الإسلامية، والنقد النصّي للقرآن، والمفردات الغربية في القرآن، وترجمَ أجزاء من القرآن، وحقّقَ كتاب (المصاحف) للسّجسْتاني.

---

(١) من كتبه الحلاج الصوفي الشهيد في الإسلام صدر في سنة (١٩٢٢) م، وله كتب وأبحاث أخرى عن الفلسفة والتصوف، وهو من كبار محرري (دائرة المعارف الإسلامية).

وحقق مقدمة كتاب المباني لنظم المعاني ومقدمة تفسير ابن عطية (المحرر)، وهمّه واهتمامه أنْ يثبتَ أنّ القرآن لم يُدَوَّن في حياة النّبيّ ﷺ.

موهم الاختلاف والتناقص في القرآن الكريم وطريق إزالته

قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ۝٣﴾ [الكهف].

قد يقع للمبتدئ ما يُوهم الاختلاف وليس اختلافاً في الحقيقة فاحتيج لإزالته، وقد تكلّم في ذلك عبد الله بن عباس ﷺ فقد قال سعيد بن جبير: "جاء رجل إلى ابن عباسٍ فقال: رأيتُ أشياء تختلف عليّ من القرآن، فقال ابن عباس: ما هو؟ أشكٌّ؟ قال: ليس بشكٍّ، ولكنّه اختلافٌ، قال: هاتِ ما اختُلِف عليكَ من ذلك، قال:

١. قال: أسمع الله يقول: ﴿لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٤٢] فقد كتموا.

٢. وأسمعه يقول: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، ثم قال: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الطور:٢٥].

٣. وقال: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت:١٠] ثم قال في الآية الأخرى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ [النازعات].

٤. وأسمعه يقول: "وكان الله"، ما شأنه يقول: وكان.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما:

١. أمّا قوله: ﴿لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ [الأنعام:٢٣] فإنّهم لما رأوا يوم القيامة أنّ الله يغفرُ لأهل الإسلام، ويغفرُ الذّنب، ولا يغفر شركاً، ولا يتعاظمه ذنبٌ أنْ يغفرَه،

جَحَده المشركون رجاءَ أنْ يُغْفَر لهم فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] فختم الله على أفواههم وتكلّمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك يَوَدُّ الَّذِينَ كفَرُوا وعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّي بِهِمُ الْأَرْضُ ولا يَكتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا.

٢. وأمّا قوله ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فإنّه إذا نفخ في الصّور فصعق مَن في السماوات ومَن في الأرض إلا من شاء الله.

٣. وأمّا قوله ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] فإنّ الأرض خُلِقت قبل السّماء وكانت السّماء دخاناً فسوّاهنّ سبع سماواتٍ في يومين بعد خلق الأرض، وأمّا قوله ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] يقول: جعل فيها جبلاً، جعل فيها نهراً، وجعل فيها شجراً، وجعل فيها بحوراً.

٤. وأمّا قوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ فإنّ الله كان ولم يزل كذلك، وهو كذلك عزيزٌ حكيمٌ عليمٌ قديرٌ لم يزل كذلك.

فما اخْتُلف عليك من القرآن فهو يشـــبه ما ذكرتُ لكَ، وإنَ الله لم ينزل شـــيئاً إلا وقد أصاب به الذي أراد، ولكن أكثر النّاس لا يعلمون"[١].

فحاصل ما فيه: السّؤال عن أربعة مواضيع:

الأول: كتمانُ المشركين حالهم وإفشاؤُه.

والثاني: نفْيُ المسألة يوم القيامة وإثباتُها.

والثالث: خلق الأرض أو السّماء أيّهما تقدّم؟

والرّابع: الإتيان بـ (كان) الدّالة على المضيّ مع أنّ الصّفة لازمةٌ.

(١) رواه عبد الرزّاق في تفسيره (٢/٨٤).

وحاصل جواب ابن عباس:

عن الأول: أنّهم يكتمون بألسنتهم فتنطلق أيديهم وجوارحهم.

وعن الثّاني: أنّ نفي المسألة فيما قبل النفخة الثّانية وإثباتها فيما بعد ذلك.

وعن الثالث: أنّه بدأ خلق الأرض في يومين، غير مَدْحُوةٍ ثمّ خلق السّموات فسواهنّ في يومين، ثمّ بعد ذلك جعل فيها الرواسي وغيرها في يومين، فتلك أربعة أيامٍ للأرض.

وعن الرّابع: بأنّ كان وإن كانت للماضي لكنّها لا تستلزم الانقطاع، بل المراد أنّه لم يزل كذلك"(١).

ومما يوهم ظاهره التناقض قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة:٥] مع قوله تعالى ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]. والجواب: ليس هناك تناقضٌ فيومُ القيامة طوله ألف سنة من سنيننا هذه، حيث قال سبحانه ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥] وإنّه يقصُر على المؤمن حتى يكون مقدار صلاةً مكتوبةً كما ثبت في الحديث الصّحيح، ويطول على الكافر حتى يكون الخمسين ألف سنةٍ.

ومما يوهم ظاهره التناقض قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. مع قوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشوري: ٥٢]. والجواب: ليس هناك تناقضٌ فالمنفي في الآية هداية التوفيق لا يملكها الرّسول ﷺ ولا غيره، وأما الثّانيه فهي هداية الإرشاد والدّلالة على الهدى وهي من وظائفه ﷺ.

(١) انظر: الاتقان في علوم القرآن (١٢٤/٢).

آيات الأحكام في القرآن

قال الغزالي وغيره: "آيات الأحكام خمسمائةٍ"، وقال بعضهم: "مائةٌ وخمسون آيةً"، قيل: ولعلّ مرادهم المصرّح به، فإنّ آيات القصص والأمثال وغيرها يستنبط منا كثيرٌ من الأحكام[1].

ويحسُن أنْ ننقلَ كلام العِزّ بن عبد السّلام في كتاب الإمام في أدلة الأحكام حيث قال: "معظم آيات القرآن لا تخلو من أحكامٍ مشتملةٍ على آدابٍ حسنةٍ وأخلاقٍ جميلةٍ. ثمّ من الآيات ما صُرِّحَ فيه بالأحكام، ومنها ما يُؤخذ بطريق الاستنباط، إمّا بلا ضمٍ إلى آيةٍ أخرى كاستنباط صحّة أنكحة الكفّار من قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ [المسد:٤]، وصحّة صوم الجنب من قوله: ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [البقرة:١٨٧]. وإمّا بضم آيةٍ إلى أخري كاستنباط أنَّ أقلّ الحمل ستةُ أشهرٍ مِنْ قوله تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف:١٥] وقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان:١٤].

ويُستدل على الأحكام تارةً بالصّيغة وهو ظاهرٌ، وتارةً بالإخبار مثل: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ﴾ و﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة:٣] و﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣].

وتارةً بما يُرتَّب عليها في العاجل أو الآجل من خيرٍ أو شرٍ أو نفعٍ أو ضرٍّ، وقد نَّوع الشّارع في ذلك أنواعاً كثيرةً ترغيباً لعباده وترهيباً وتقريباً إلى أفهامهم.

فكلُّ فعل عظَّمه الشَّرع، أو مدحَه، أو مدح فاعلَه لأجله، أو أحبَّه، أو أحبَّ فاعلَه، أو رضيَ به، أو رضيَ عن فاعله، أو وصفَه بالإستقامه، أو البركة، أو الطّيب، أو أقسمَ به، أو بفاعله، كالإقسام بالشَّفع والوتر، وبخيل المجاهدين، وبالنّفس اللّوامة، أو نصَّبه سبباً لذكره

(١) انظر: البرهان للزّركشي (٢/٢).

لعبده أو لمحبته، أو لِثَوابٍ عاجلٍ أو آجلٍ، أو لشكره له أو لهدايته إيّاه، أو لإرضاء فاعله، أو لمغفرة ذنبه، وتكفير سيئاتة، أو لنصر فاعله، أو بشارته، أو وَصَفَ الفعل بكونه معروفاً، أو نفى الحزن والخوف من فاعله، أو وعده بالأمْن، أو نصبَه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرّسول بحصوله، أو وصفه بكونه قُربةً، أو بصفة مدحٍ كالحياة والنّور والشّفاء فهو دليلٌ على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والنَدب.

وكلَّ فعلٍ طلب الشّارع تركَه، أو ذمَّه، أو ذمَّ فاعله، أو عَتِب عليه، أو مَقَتَ فاعله، أو لَعَنَه، أو نفى محبّتَه، أو نفى الرضى به، أو نفى الرضى عن فاعله، أو شبّه فاعله بالبهائم، أو بالشّياطين، مانعاً من الهدى، أو من القَبول، أو وصفه بسوءٍ، أو كراهةٍ، أو استعاذَ الأنبياء منه، أو أبغضوه، أو جُعل سبباً لنفي الفلاح، أو لعذابٍ عاجلٍ أو آجلٍ، أو لذمٍّ، أو لومٍ، أو ضلالةٍ ومعصيةٍ أو وُصِفَ بخُبْثٍ، أو رجسٍ أو نَجَسٍ، أو بكونه فسقاً، أو إثماً، أو سبباً لإثمٍ، أو رجسٍ، أو لعنٍ، أو غضبٍ، أو زوال نعمةٍ، أو حلول نقمةٍ، أو حدٍّ من الحدود، أو خزيٍ، أو لعداوة الله ومحاربته، أو استهزائه، أو سخريته، أو وصف نفسه بالصّبر عليه، أو بالحلم، أو الصّفح، أو دعا إلى التّوبة منه، أو وصف فاعله بخبثٍ، أو احتقارٍ، أو نَسَبَهُ إلى عمل الشّيطان، أو تزينه، أو تَوَلّي الشّيطان لفاعله.

أو وَصَفَه بصفة ذمٍ ككونه ظلماً، أو بغياً، أو عدواناً، أو إثماً، أو مرضاً، أو تبرّأ الأنبياء منه، أو من فاعله، أو شَكَوْا إلى الله من فاعله، أو جاهر لفاعله بالعداوة، أو نُهوا عن الأسى والحزن عليه، أو نُصِبَ سبباً لخيبة فاعله عاجلاً أو آجلاً، أو رُتِّبَ عليه حرمان الجنّة وما فيها.

أو وَصَفَ فاعله بأنّه عدوٌّ لله، أو بأنّ الله عدوّه، أو أُعلم فاعله بحربٍ من الله ورسوله، أو حَمَلَ فاعله إثم غيره، أو قيل فيه: لاينبغي هذا، أو أَمَرَه بفعل مضادَّه أو بهجرِ فاعلهِ، أو تَلاَعَن فاعليه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعضٍ، أو دعا بعضهُم على بعضٍ.

أو وُصِفَ فاعله بالضّلالة، وأنَّه ليس من الله في شيءٍ، أو ليس من الرّسول وأصحابه، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جُعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو نَهَى الأنبياء عن الدّعاء لفاعله، أو رتّب عليه إبعاداً أو طرداً، أو لفظةَ قتلٍ مَن فعله، أو قاتله الله، أو أخبرَ أنَّ فاعله لا يكلّمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكّيه، ولا يُصلح عملَه، ولايهدي كيدَهَ، أو لا يُفْلح أو قيّض له الشّيطان، أو جُعل سبباً لإزاغة قلب فاعله، أو صَرْفِه عن آيات الله، وسؤاله عن علّة الفعل.

فهو دليلٌ على المنع من الفعل ودلالته على التّحريم أظهر من دلالته على مجرد الكراهة.

وتستفاد الإباحةُ من لفظ الإحلال، ونفي الحرج، والجُناح، والإثم، والمؤاخذة، ومن الإذن فيه، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، ومن السّكوت عن التّحريم، ومن الإنكار على منَ حرّم الشّئ من الإخبار بأنّه خُلق أو جُعل لنا، والإخبار عن فعلِ مَن قبلنا غير ذامٍ عليه، فإن اقترنَ بإخباره مدحٌ دلَّ على مشروعيته وجوباً أو استحباباً"[1].

وقال غيره: قد يستنبطُ المباح من السّكوت. وقد استدلّ جماعةٌ على أنّ القرآن غير مخلوقٍ بأنّ الله ذكر الإنسان في ثمانية عشر موضعاً وقال: إنّه مخلوق، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً ولم يقل إنّه مخلوق. ولما جمع بينها غاير فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾ [الرحمن].

(١) انظر: الإمام في أدلة الأحكام (٢١/١).

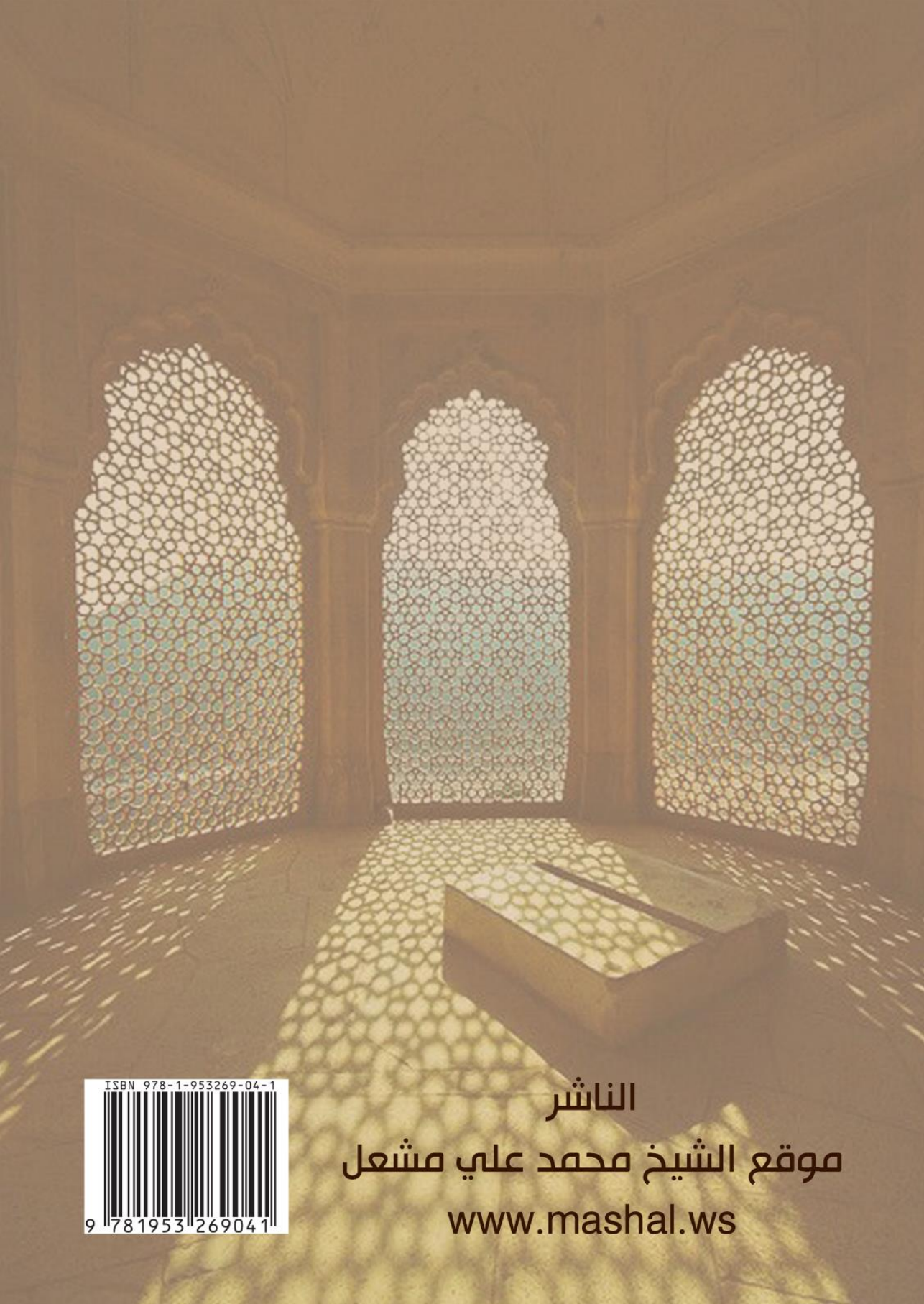

ISBN 978-1-953269-04-1

الناشر

موقع الشيخ محمد علي مشعل

www.mashal.ws